عبد اللطيف الحرز

محطّة قطار براماتا

روايـة

الفارابي

محطة قطار براماتا

عبد اللطيف الحرز

محطة قطار براماتا

مرايا لأشباه الخنازيز

(روايـــــــة)

الفارابي

الكتاب: محطة قطار براماتا
المؤلف: عبداللطيف الحرز
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: farabi@inco.com.lb
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2007
ISBN: 978-9953-71-227-1

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

سلسلة: غريب على الطريق.. شوارع خالية في منتصف الليل والألم. (10)

الاهداء

إلى أمي المقدسة وأخويَّ الصغيرين عبد الرزاق وعبد الخالق،

إلى رفقاء القلم وفرسان حماية الحرية والمياه... محمد هني اليساري، وبقية شهداء المعارضة،

الى شعوبنا العربية كي تعيد قراءة جرحنا العراقي مرة أخرى،

إلى العراق حيث طفولتي البعيدة هناك.

عبد اللطيف الحرز

سدني ـ استراليا

1

لم يكن في مدينة «قم» الإيرانية مقهى نلوذ به من أحلامنا... كنا نجتمع في مقبرة «شيخان» أو ضريح السيدة معصومة، أو قبر المرعشي النجفي، صاحب أكبر مكتبة للمخطوطات في الشرق. وهي كتب أخذها من العراق حينما كان طالباً في النجف.. إذ لا مكان لتعاطي الأحلام سوى المقبرة!!.

كنتُ مرتبكاً جداً.. تفاقم أكثر فأكثر ضيق الصدر والشعور بالحبسة.. فكل شيء كان يغلي ثم يموت في دواخلي.. المشاعر أزهار تختنق وتموت بمياه بركانية خانقة... أصبحتُ لا ألتقي بأيّة فتاة لمدة طويلة، خوفاً من أن تتحسّس من توتري العصبي.

أما «حماده» فقد كان منهمكاً بمضاجعة أحلام اليقظة، بأن يجمع بعض المال، ويحصل على امرأة بيضاء فاتنة.. وجهه كان ساهماً أكثر من دخان سيجارته التي لا تنطفىء...

يبتسم.. يتضجّر.. وبعض الأحيان يغضب، ويشرع في الصياح ضد فكرة لعينة مستعصية:

ـ يلعن أبو الحياة.. حتى الخيال بيها مُرّ.

ـ هذا يعني أنك لا تزال في وضع حسن تُحسد عليه.. أنت بعد لم تفقد الذائقة.

ـ لا يابه، شنو بعد هناك مرحلة مجنونة لم نصل اليها بعد؟!

ـ محطات البؤس كثيرة (ابتسمتُ بفتور): بعدد أنفاس الخلائق.

ـ وفرحان هواي.. تقولها وكأنك سوف تتزوج ثلاث نساء مرة واحدة؟!!

ـ ليس فرحاً.. لكن تكاثرت الطعنات فيّ، فلم تعد لي حاسة تميز بين المفرح والمحزن.. اليأس يعلمك بأنَّ هناك منطقة حيادية بين الإلّه والكون.. بين الوجود والعدم..

البؤس يا حماده اللاهي بخصيته، يولّد قناعة تامة بإمكانية الجمع بين المتناقضين.. بل يجد أنَّ هذا الجمع هو وحده المنطقي والضروري وما هو حاصل فعلاً.

حماده كان موجوعاً، وهو أضعف بكثير من هذا الضغط النفسي، هو منذ أيام بات لا ينام إلّا أقل من ثلاث ساعات في اليوم.. إيران بالنسبة إليه لم تعد محتملة.. والأهوار، تلك الجنان المقدسة في الجنوب العراقي، تم تجفيفها كلياً،

وضاعت جميع محاولات إيقاف عملية صدام حسين المجنونة تلك.

جفّ الماء.. مات الجاموس.. رحل المعدان.. تبعثرت مجموعات الشبان المجاهدين في الأهوار ضد حكومة حزب البعث العراقي وصدام حسين.

حياة الحرب ضرورية للفقراء بعض الأحيان.. الإحساس بالخطر يلجم الشهوات وينسي الاحتياجات الجسدية والنفسية.. الآن حماده دخل الثلاثين من العمر، ترك بندقيته تصدأ، فيما الجسد متصلّب ومتشقق مثل حزام قديم.

انكفأ الشبان الذين كانوا يقاتلون مرتزقة صدام حسين، إلى مجموعات تمارس الرياضة الصباحية والتكرّش في معسكرات تابعة للجيش الايراني، فيما مجموعات أخرى انضمّت إلى الحوزة لدراسة العلوم الدينية.

مجموعات أخرى أيضاً كانت لا تريد للروح أن تتلوّث، وتأنف أن تضمّد جراحات الجهاد من أجل الحرية والماء، بخرق العمامة وحياة الدجل والنفاق الديني والاجتماعي.. كانت هذه المجموعة تسافر وتسافر رحلات مجنونة بين الدول جميعها بطرق خيالية ووسائل أقل من أن توصف بالبدائية.

كانت الأنباء تتوالى عن وصول بعض الأصدقاء إلى أستراليا، مهبط اللجوء ونبوة الأمن والعيش الكريم.. الأزمة أنّ الذين يتاح لهم الوصول هم في غالبيتهم من ذوي الحال

الميسورة في إيران.. هؤلاء المرتزقة يعيشون في بحبوحة الحياة أينما حلّوا وولوا وجوههم.

كان حماده يحاول إشعال سيجارته الثالثة.. إحدى شفتيه ازرقّت من الدخان.. لكن جمرة السيجارة شيء ضروري.. إذ لا أحد توزّع عليه فائض القهر سوى هذه الوريقة الفدائية.

ومن دون أن يلتفت برأسه إليّ قال بما يشبه الهمهمة، من فرط التردّد وتورّم الحسرات:

ـ قل لي مهدي: هل من الممكن لنا أن نصل إلى أستراليا يوماً؟!

ـ لا أدري.. ينتابني شعور غريب غامض، لم أشعر بمثله في تجاربي السابقة في الهرب بين الدول، بأنّ الوصول هذه المرة يمكن أن يكون قاسياً مثل عدم الوصول.

فرك حماده سيجارته بيده من شدة الحنق والغضب وصاح بانفعال:

ـ حاول أن تتخلّص من أخبال الفلسفة.. تراني طالعة روحي.

. . . . . .

كنتُ أنتظر القطار في محطة براماتا، في مدينة سدني الأسترالية، متمنياً عدم وصوله، وأن يتوقف الزمن فأقضي فترة وجودي في هذه المحطة.. لا أعرف لماذا أشعر بالراحة كلما تأخر القطار عن موعده.. هل ما زلتُ غير مصدق ما

حصل من كارثة؟!.. هل لا يزال القلب ينتظر قطار موعده في محطاته اللاشعورية، هناك داخل مملكة الحواس الباطنية؟!

مرة تعطّل القطار فاضطرّ للتوقف لمدة طويلة أكثر من المعتاد في مثل هذه الحالات، فأخذتُ أتقافز بفرح طفولي، ولم أنتبه إلى الناس المشدوهين من حولي:

القطار المتوقّف في منتصف الطريق، وحده الذي يمرّ على تلك الحديقة التي كنا نجتمع فيها!

ـ حماده.. يا شيخ الخصّاوي، نحن لم يجرِ تسجيلنا في هذا العالم، يبدو أنّ الإلّه قد نسي تدوين أسمائنا في دفتر الوجود.. نحن قطارات خيالية تعربد في محطات الجنون.

ـ «لكن يجب أن أسافر، أنا رجّال لا ينتمي للمعدان وإن عاشرهم، وعيب عليّ أن أقضي حياتي أكدي على أبواب الفقهاء والمراجع.. ثم زبي صار قلماً من كثر ضرب الجلغ» (= العادة السرية).

لم أستطع إلا أن أضحك ضحكة مجلجلة طويلة.

ومن دون أن ينتظر مني جواباً أخذ حماده ببساط الحديث إلى أرض التيه السندبادي القديم:

ـ «هل تدري يا خلّي الوفي الأجرب، أنَّ المعدان لديهم روح خاصة. أشعر أنَّ مكوثي في الأهوار تلك الفترة جعلت

روحي تتثقب فتسربت إليها روح الأهوار... مرات عديدة أشعر أني بتُّ معيدي حقيقية، هؤلاء المعدان، السكان الأصليون في منطقة الجنوب العراقي، هم طينة مكهربة.

على أية حال يا زميلي في العطش: ـ هل تصدّق أني بعض الأحيان أتخيل أنه سيتم سقوط صدام حسين فتشيد الأحزاب الشيعية دولة دينية؟!

ـ «بالتأكيد أنني سوف أنتحر.. كم سيكون التاريخ مجرماً لو سمح للتجربة الخمينية أن تتكرر».

قلتُ له وقد استفزني الكلام تماماً، فرددتُ عليه بعجل وكأنما نتبادل إطلاقات رصاص وليس توهيمات حديث:

ـ لو أقام الشيعة دولة دينية في العراق، أو في أي بلد آخر، بعد كل الذي جرى في إيران الخمينية، فإنّ هذا يعني ضرورة حجز الشيعة في محاجر للأمراض العقلية.

ـ «يعني أنك طلّقت هذه الأحزاب التي كنتَ تحمل سلاحها وتدافع عنها؟!».

ـ لم يكن لديّ انتماء اليها يوماً ولم أحمل لها سلاحاً.. كنا نقاتل من أجل الماء وأرواح القصب والجاموس.. لم يعطنا أحد سلاحاً، قاتلنا لوحدنا وتفرقنا أشتاتاً ولم يسأل عنا أحد...

ـ «لكن لو أنّ الأحزاب انتصرت فهل يعني هذا أنك سوف تتخلى عنها؟!».

ـ لا.. هذه الأحزاب رغم كل سيئاتها فإنها الأقرب إلى جرحي.. لكن كل المسألة هي أنّ الماء لا يقبل التحزّب.

القطار في سدني نظيف ومرتب، يرتاده أكثر من مليون مستخدم في اليوم الواحد، رغم أنّ الجميع هنا تقريباً، يمتلكون سيارات خاصة بهم.. فللأب سيارته، وكذلك للأم.. وللأولاد والبنات، لكل منهم سيارته الخاصة به، تماماً مثلما لكل منهم حذاؤه الخاص به.

ومع ذلك يتم استخدام القطار من قبل الموظفين في الدوائر البعيدة (خصوصاً وأنّ الطريق بعد انتهاء الدوام يكون مزدحماً جـداً)، ومن قبل طلاب المدارس.. وبعض من الشرقيين البخلاء، حيث أنّ للبنزين ثمناً مرتفعاً في مثل هذه البلدان، فهو يعادل ثمن الماء الصالح للشرب في مدينة البصرة العراقية!

فحتى الآن عشيقتي الإيرلندية الأصل «كوستنس» لا تستطيع تصديق أن الماء في البصرة أغلى من البنزين هنا أو يعادله كلفة.. العراق بلد الفراتين وشط العرب والأهوار المقدسة.

آاه نسيت أنَّ البنزين في العراق الآن يعادل قيمة الماء، فكلاهما ارتفع أضعافاً مضاعفة بعد سقوط صدام حسين، وتنامي العمليات الارهابية والسلب والنهب من قبل الأشقاء

العرب ومن قبل العراقيين أنفسهم.. وحده الدم العراقي بات أقل من أن نقارنه بثمن الماء!

فأنا أحبّ منطقة «براماتا» كثيراً، فهي على شيء من الترتيب وفيها أسواق جميلة لا تُخيّب صنارةً لصائد.

هنا بقرب هذه المحطة تم اصطياد أول بطة تعرّفت اليها حين وصولي الى سدني قادماً من معسكر «ومرا» للاجئين.

خرجتُ من معسكر اللجوء مثل مدفع من طراز قديم تم زيادة حشوته البارودية ويكاد ينفجر على نفسه، فتمّ قذفي بقرب هذه المحطة وسط أسواق الأوزّ اللامعة.

ماذا عساك أن تخمّن نتيجة إطلاق ديك عربي في هذا المكان؟!

ديك تاه سنوات مريرة في بلدان التصحّر العقلي والنفسي... من بإمكانه أن يتصور أني يوماً حصلت لي مشكلة في أحد المعاهد الدراسية في إيران، لكوني كنتُ أُنصتُ لأغنيات فيروز عن مواعيد الحب والشتاء والبحر، ولبعض السمفونيات الكلاسيكية الهادئة.

دولة تخاف من وتر العود، لماذا نستغرب أن تجوّع الشعب كله من أجل التسلح النووي والعسكري... الوهم وحده من يحتاج للسلاح.. أما الحقيقة فهي عارية الصدر دوماً.

إنَّ حماده الأسود البشرة، الذي لا يدري كيف يتخلص

من روح المعدان التي تسرّبت إليه، كان يُعمّد نفسه ليلاً بالدموع والبكاء:

ـ «أنا أسود وقبيح، يجب أن أتزوج من امرأة بيضاء كي لا تتكرر مأساتي مع الناس».

لقد كانت عقدةً لا يستطيع أحد مواساته فيها سوى ابن مدينة المعقل في البصرة، نزار سادود، الذي كان يقربه في ملامح الوجه، لكنه كان يتفوّق عليه من ناحية طول القامة وإشغال نفسه بالمطالعة في كتب النحو والبلاغة، ولعل مطالعة تلك البلاغة هي التي بلغت بنزار سادود أن يموت بعد أسبوع واحد فقط من وصوله إلى العراق بعد سقوط صدام حسين، أما حماده فستكون له بلاغة عيش طويل.

مع ذلك كان كلاهما أسود، والمجتمع العربي والشرقي يحوّل هذه السمرة إلى عصاب إرهابي وخطاب هجائي.

البياض عقدة مَرَضية عصيّة في بلداننا الحارة، خصوصاً لدينا نحن أهل الجنوب العراقي وبلدان الخليج العربي.

فالمشكلة أنَّ الكمية هي التي تحدد القيمة دائماً.. فهل للذهب كل هذه القيمة فيما لو كان بوفرة الحصى والتراب؟!

كمية البياض قليلة لدينا حتى في العلم الوطني.. الأبيض يقابله الأسود والأحمر.. لا وصول للمرأة المشتهاة، إما الحزن وإما الموت.

في براماتا، كانت الفتاة البيضاء الفاتنة الرشيقة القوام

والنظيفة الثياب.. تتقلب.. لم تكن تنتظر سوى ابتسامة أمان صادقة ليس إلّا.

«الأمان».. كم أفتقده، وكم لا يزال المفهوم الأشد اختراقاً لدواخلي، فكأنه قطعة شهاب اخترقتني ولا تريد أن تبرد أبداً.. وجودي في استراليا لم يزل يتقلب بيد عفريت الزمن وصيرورة الوجود.. أنا حتى الآن لا أحمل ورقة إقامة دائمة في هذه الأرض.. استراليا آخر حفنة تراب على هذا الكوكب والتي كان يسميها حماده «كس أم الدنيا»، باعتبار أنَّ فُرُوْجَ النساء هي آخر ما يمكن أن يحلم الإنسان العربي والشرقي الفقير بالوصول إليه.

فالحديث عن المنفى أشد وجعاً من المنفى، لكني في رحلة الوصول إلى استراليا، عرفت أشياء كثيرة، تستحق العناية بخلاف الرحلات المجنونة السابقة.. أشياء كثيرة.. كثيرة جداً: نساء من شتى الجنسيات والأقوام.. المال.. طرق التهريب.. شخصيات كبيرة ومهمة.. كتب نظريات.

أمر واحد لم أصل إليه بعد.. شيء واحد هو ما كان طلبي الأول الذي كان ولا يزال، حتى الآن لم أزل أطرق رأسي على أرصفة السفارات وأستجدي حفنة من «أمان».

منذ الفجر تركتُ كوستنس نائمة.. أبعدت الشرشف عن جسدها قليلاً، مسحت على سجادة الحرير المسماة شعرها.. قبّلتها بهدوء على وجنتها المحمرّة المرتفعة، ثم أدرتُ ظهري

وخرجت.. وبدون هدى وجدتُ نفسي جالساً في محطة القطار.

كانت المحطة فارغة هادئة تماماً.. تذكرتُ أنّ اليوم هو يوم الأحد وأنّ الناس يستقلون سياراتهم الخاصة..

لا حاجة للقطار فهذا يوم عطلة، إنّه يوم النزهة والتمتع بالأرض... الأرض التي أشتهي ولو لمرة واحدة أن أسير فوقها ثابت القدم، فلا أمشي متعثراً لأنني لا أمتلك بطاقة خضراء في قم، ولا جوازاً عراقياً رسمياً غير مزور في ماليزيا وأندونيسيا، ولا أملك «فيزا» دائمة في استراليا.. أنا من الأرض وسوف أعود إلى الأرض، فهل يعقل أن تكون كل هذه الخصومة بيني وبينها.. من فرّق بيننا وبين أمنا الأولى هذه؟!

تهاويت على مقعد المحطة وكأني تدحرجت من جبال حدودية في رحلة تهريب في تركيا أو الشمال العراقي.. لا أحد في محطة القطار سواي. لم ألحظ ذلك إلّا بعد مرور أكثر من ساعة كاملة.

كان رأسي مدينة كاملة.. مدينة هجم عليها البرابرة وقبائل همجية لا تكف عن النهب وهستيريا الصراخ.. اندحرت محاولات ترتيب أفكاري ومشاعري.. طاف بي الزمن وعام حزني فوق تلاطم أمواج الذكريات والهواجس والاحساس بالهزيمة الكاملة.

لم أنتبه إلا وأحد رجال الشرطة يسألني بطريقة جد عادية تخيلتها قاسية فجة أول لحظة، سألني إذا كنتُ أعاني من شيء بعد أنّ لاحظ اضطرابي؛ محتمل أنّه ظنني قد بالغت في الشرب والسكر، فالبارحة كان يوم أحد والكثيرون يتنعّمون بشرب أنواع الخمور التي حُرمنا منها نحن المسلمين.

استفسر الشرطي عن بطاقتي، وإن كنتُ قد اشتريت بطاقة لصعود القطار، إذ إنَّ أفراد الجالية العربية، وبعض الجاليات الشرقية الأخرى من أفارقة وصينيين وفيج وغيرهم، يمتطون صهوة القطار بطريقة جمل الصحراء، فلا يدفعون مالاً ولا هم يحزنون، و «طز بالحكومة وبرئيس الوزراء جون هاور» كما يقولون، رغم أنّ ثمن القطار بخس للغاية.

لا أعرف فحتى الآن لا أستطيع أن أتآلف مع شيء اسمه «الشرطة».. الشرطة والشيطان قرينان في ذهني بشكل عجيب... أشعر أنّ صوت حذائه يقرأ حكم الاعدام عليّ، من بين صفحات إسفلت الرصيف.

إنَّ وجود الشرطي لوحده، إدانة لي بأنني شخص غير مدوّن الحضور في هذا الكوكب.. الى متى العراقي والعربي والشرقي، ينتظر هذا الأمان الذي لا يتحقق؟!

قال لي الشرطي إنّه من غير المعقول أن لا أذهب إلى قطع تذكرة، وأجلس منتظراً القطار.. ثم إنَّ القطار سوف يتأخر كثيراً حيث يُجرى له الآن عملية صيانة؟!.

ابتسمت بتصنّع واضح:

ـ تذكرتي ليس بيدي الحصول عليها، ثم إنَّ المحطة التي أريدها، قطارها متوقّف ومعطّل منذ زمن بعيد.

. . . . . .

2

في ذلك الليل كان حماده «سياه»، أي الأسود باللغة الفارسية، واقفاً متجهم الوجه، كنخلة منتصبة في عتمة الذاكرة.

روحه الطرية مثل رطب البرحي.. كانت تتمرد على الحياة الجافة في إيران وعذابات الوضع العراقي هناك بعد خيبة الانتفاضة الشعبية ضد صدام حسين في مطلع تسعينيات القرن العشرين:

ـ «نحن لم نهرب من حكومة صدام حسين، كي نتحول إلى قطيع خراف تائه».

كثيرون سعدوا بالخلاص ما أن توارت عنهم الحدود، بيد أنّ السؤال بدا مباغتاً:

ـ «وماذا بعد.. أين نشاطنا الانساني، ما دمنا محرومين من الزواج ومن العمل، فضلاً عن حرية الاختيار في مواصلة النشاط السياسي والفكري لتحرير أنفسنا والوطن؟!».

سؤال وقع على الرؤوس مثل حجارة السجيل التي تحملها طيور أبابيل لم تزل تقاوم الموت وتطارد كل من يبتغي انقلاباً في نظام الحكم المتوارث.

ها هو حماده منتصباً يتأمل عالماً لا يشاهده أحدٌ سواه.

عالم يعيش فيه مع زوجة بيضاء البشرة، يداعب شعرها المائل إلى اللون الأشقر.. تنظر اليه بعيون ناعسة، مستلقية عليه بهدوء شبه مخدر من الراحة ولذة النعيم.. حوله أطفاله يتفافزون ويعبثون بألعابهم الكثيرة.. وهو يرمقهم:

ـ هذا سمين مثل أبيه.. وهذا طويل مثل خاله.. وهذه لعوبة مثل أخته.. وهذه طفلة هادئة ساكنة مثل أمه.

حماده يبتسم.. يبتسم.. ويضيع في تلك المجرة الأثيرية، بعيداً عن حكومة صدام حسين الجلاد، ومعارضته اللئيمة، بعيداً عن هذا المجتمع الغارق بإثم الماضي وهجاية الحاضر ومعاداة الزمن.

مجتمع كله عبارة عن محكمة قصاص أزلية، حيث الجميع فيه ضد الجميع.

حماده يبتسم ولا يشعر باحتراق سيجارته التي انتهت واختفى دخانها وتطاير مع الهواء، وأضحى جزءاً من عالم اللاتحقق، تماماً تماماً مثل أحلام اليقظة هذه.

في 6/ 6/ 2005، اتصلت من سدني ـ استراليا، بالعراق،

وتمّ إعلامي بأنّ العم «أبو صادق» خال حماده الذي بالكاد يجيد قراءة اسمه، بات اليوم أحد كبار المسؤولين السياسيين في العراق، وأحد أعيان منطقته هناك.

فهو بعد أن حوّل نصف منزله إلى «حسينية» جامعاً بهذه اللافتة المال من متبرعين عاديين، تحول منزله إلى حسينية كبيرة، وذلك بعد أن تم دعمها من أحزاب المعارضة الدينية السياسية القادمة من سوريا وإيران ولندن، وبات أبو صادق الآن يمارس الأذان، ومكاتب الفقهاء والمرجعية، لا تنسى دعمه في نشر اسم أهل البيت النبوي، وخصوصاً ذكرى الامام الحسين بن علي بن أبي طالب.

توسعت جيوب خال حماده، وارتفع كرشه، وتزوج ثلاث مرات من فتيات أقل من عمر بناته، بالاضافة إلى زوجته القديمة «الجلحه الملحه المصخمه» حسب ما يحب توصيفها هو نفسه.

ثلاث زوجات بيضاوات صغار كل واحدة منهن بطة صغيرة تتقلب بمشيتها كدمية.

تساءلتُ عن أخ لأحد الزملاء الذين غرقوا في رحلة الهروب إلى استراليا، قد تركناه صغيراً، والآن هو بالتأكيد شاب يافع.

قالوا لي:

ـ «كان في البداية يعمل بائع مواد قديمة وبالكاد يجمع

لقمة معيشته، أما الزواج فهو من المستحيلات السبع في حياته، لذا فهو مخيّر بين الانظمام لميليشيات الأحزاب الظاهرة وبين ميليشيات الارهاب المتخفية».

في ذلك اليوم قلتُ لنفسي:

لا عجب فالمتاهة لا تكون متاهة، لولا أنها لا حدود لها بتاتاً..

كل شيء في هذا الضياع محرقة خالدة

هنالك مدخلان لمحطة القطار في منطقة براماتا، كلاهما يمر في نفقٍ صغير توجد فيه مكتبة صغيرة وكشك متواضع للمجلات والسجائر، ثم تصعد المحطة بدرج مقسوم إلى نصفين للنازلين من القطار، وللصاعدين إليه.

المدخل الأول هو من شارع فيه محل مفتوح ليل نهارٍ للدعارة، بقربه محل لامرأة أفريقية لتسريح الشَّعر، يجاورها محل هندي خالٍ من أي ترتيب، يبتاع الخضروات والطعام، وينتهي من اليمين بمحل لبيع الخضار والفواكه، لرجل لبناني عربي.

أما من اليسار، فالشارع ينتهي بتقاطع إشارة مرور ويبتدأ بمحل صغير تركي للسندويشات والبيتزا.

أما المدخل الثاني فهو يبتدأ بانتهاء أحد أشهر شوارع الجالية العربية والاسلامية المسمى بـ «أوبن»، وهو شارع

تكثر فيه نساء جميلات ومحلات لأطعمة شهية، وفيه مكتبة واحدة أهلية سلفية وهابية ضئيلة الحجم، مع مكتبة رسمية حكومية، فيها شتى الكتب بما فيها اللغة العربية، لكن بعدد محدود من تلك الكتب.

وبما أننا ذكرنا الشرقيين والعرب في هذا الشارع، إذن لا داعي لذكر كثرة المشاكل في هذا المكان، وكثرة الذين يخالفون السير بسياراتهم بصورة ينتهي عندها كل وصف.

هذا الشارع كأنه قطعة مخلوعة من الشرق مرمية بكل مصائبها في هذه القارة الساحرة.

لا أعرف كيف تذكرتُ مسجد البصرة الكبير، وكيف أنّ الزقاق المجاور له مباشرة، كان متخماً بالداعرات وبائعات الهوى والعذاب.

مدرستي للمرحلة المتوسطة، مدرسة أسامة بن زيد في منطقة الزبير، كان الطريق إليها مزروعاً زرعاً بهذه البيوت.

حتى البيت المواجه للمدرسة الذي لا تقل المسافة بين باب المدرسة وباب ذلك المنزل عن عشرة أمتار فقط، كان من تلكم البيوت أيضاً، أما مدرستي «مدرسة النصر الابتدائية للبنين» فيكفي أنها عرفتنا بجارتنا «زينب» ابنة مدينة الفاو العراقية الواقعة على حدود إيران والمتمددة منذ الأزل على خليج عربي الجراح.

زينب التي لا يزال جسدها الرائع النعومة يثير فيّ جمرة

الشهوة حتى هذه اللحظة، وكأنها تلك العاهرة البابلية التي نقلت انكيدو من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد والمصيبة.

المعادلة ذاتها كانت ثابتة في حوزات مدينة قم الإيرانية ومدارسها اللاهوتية هناك، أهي محض مصادفة فقط... أم لطف وجودي لتخفيف أفيون الحياة وليس أفيون الشعوب كما كان يقول العزيز كارل ماركس؟!!

لكن هذا إن قبلناه سيعني: أنَّ الدعارة عنصر ثوري!

في الشرق حتى الداعرات لهن أخلاق السلطة، رغم أنهن يفترض بهن العنصر الأول في التمرد على أيّ نظام كان، حيث أنهن في الرتبة الأولى في أرشيف الضحية.

وأنا اتطلع في محطة قطار براماتا وفي رأسي قصيدة شِعر عراقية وجدتها في ديوانٍ يحمل عنوان «آخر الأسلحة»، بينما القصيدة معنونة بأنها «عري كوني»، أخذت أرتع رنين القصيدة فتحولت جمجمتي إلى ناقوس، حيث كانت القصيدة تقول:

«كل شيء يحيل
إلى مضاجعة
إلى عملية افتضاض وتعري
حباً كان أو عن كراهية:
الخلق افتضاض العدم
القلم افتضاض الورق
الكتابة افتضاض الحروف

العقل افتضاض المعنى
الكلام افتضاض الصمت
المشي افتضاض المسافة
البصر افتضاض الظلمة
الحياة افتضاض الملل
الموت افتضاض الحياة
الخمر افتضاض العقل
الحب افتضاض الجسد
الشيخوخة افتضاض الطفولة
الحركة افتضاض السكون
.... الكون حفل دعارة كبير».
.....

لم يكن هناك شيء يُسكّن ويهدّىء من ضجيج هذا الجبل الصخري الأسود المسمى بـ حماده، سوى عجوز شمطاء تعمل خادمة تنظيف في مدرسة بنات للمرحلة المتوسطة.

تعرفنا عليها حين صحبتها زميلتها المتوسطة العمر.. زميلتها هذه فتحت لنا ذات يوم كنز «علي بابا»، وذلك حينما أخبرتنا بأنَّ بإمكانها أن تعرفنا على بنات من أعمارنا، لكن بشرطين: الأول هو أن يكون أحدنا عشيقاً لها لا يذهب لمضاجعة أي فتاة أخرى غيرها.

والشرط الثاني أن لا نهمل زميلتها العجوز من حق الجنس

والمضاجعة، إذ إنّ هذه العجوز شجرة والشجرة قابلة للاحتراق أكثر كلما تقدم بها العمر وتيبست!

أما بخصوص الشرط الثاني فقد تكفل به حماده سياه على أفضل وجه.

لكن الشرط الأول كان مستحيلاً.

«صفية خانم» اختارت أصغر مجموعتنا سناً كي يكون عشيقها.. نعم لقد اختارتني أنا بالذات.. ورضيتُ أنا بذلك قرباناً لأصدقائي كي يتمتعوا بالفتيات الصغيرات اللواتي يناسبنني عمراً.

بيد أنّ صفية خانم شاهدتني في اليوم الثاني تماماً مع حبيبتي «حنان»، عندها انفض عهدها لنا ولم تجلب لنا أي فتاة، رغم أنّ الجميع شرح لصفية، قصتي مع الحبيبة حنان، والظرف الاستثنائي الذي يحاصرنا جميعاً في إيران، وأنّ هذه العلاقة جد مختلفة.

لم يستفد أحد من هذا الموضوع سوى حماده فقط، حيث تعلقت به العجوز الشمطاء بصورة عجيبة، فبات فرصة دائمة للتندر.

وفي إحدى ليالي مدينة قم الإيرانية الحارة، توقف الهواء تماماً، ولم يكن لدينا حتى مروحة كهربائية قديمة.. صوت العجوز وهي تأنّ تحت وطأة محراث حماده سياه، كان مسموعاً بوضوح، فصحنا بها أن تخفض صوتها فهي ليست

فتاة مراهقة، أجابت وحماده بعد لم يفرغ منها: من حقي أن أصيح.. حماده جون (= العزيز) لديه قضيب بطول قطار يوصل من إيران وحتى استراليا.

3

كأنما الحرب وشم يولد تلقائياً مشتبكاً فوق لحم الأيام وخطوط كف الحياة.

أنتَ داخل العراق جندي تقاتل مع نظام صدام حسين، من أجل الأرض وتجفيف الأهوار، وأنتَ خارج العراق، جندي يتسلل عبر الحدود الإيرانية العراقية، من أجل حماية العقيدة وفتح سدود المياه، إذ العقيدة بحاجة إلى ماء الوضوء دائماً.

حماده سياه كان يقول في تلك الأزمنة المُرّة:

ـ «لقد تحوّلتُ إلى بندقية صدئة.. لقد انتهى كل صبري وذخيرتي».

محمد هني الياسري، ابن مدينة العمارة العامرة بالشجاعة والعناد، الذي لم يكن أحد يستطيع التفاهم معه إلا ابن البصرة توأمه في التحليق في سماء التمرد والاختلاف، أعني هادي سيد جبر.

محمد هني الياسري، كان مصراً على أنَّ القصب في

الأهوار إما قائم يرضع الماء والطين، وإما هو خيزرانة تدفع الزورق في رحلة المعدان السرمدية:

ـ «يابن البصرة المكحلة العيون بالأسى: المعيدي بره الماي خسيس ونذل».

محمد هني الياسري كان ينظر إلى حياة الناس في ظل المعارضة داخل المدن الأجنبية بأنها حياة قيد الإعارة، وعاجلاً أم آجلاً سوف يدرك الناس إما أن يعودوا إلى مدن الماء ويقاتلون عنها، وإما أنهم سوف يتحولون إلى مخلوقات أخرى:

الحياة بعيداً عن قضايا الوطن انتحار داخلي للذات.. العيش داخل سرداب أزلي داخل الوطن خير ألف مرة من العيش في الهواء الطلق في المدن الأجنبية.. تلك كانت آخر حكمة أعطتها مدرسة أهل البيت.

«تفهم آخر وصية لآخر حفيد لعلي بن أبي طالب، ماذا تعني: ما هو خارج الوطن هو العدم.. الناس خارجه هناك مشغلهم خلق مجاز يقنعهم بأنهم لا يزالون على قيد الحياة.. ليست حياة على قيد الإعارة وإنما حياة على قيد الدعارة.. الدعارة.. هل تفهم؟!».

ـ يقطّب محمد هني الياسري فيكون حاجباه مثل جناحي صقر، ويحدق بتوأمه النمر العراقي المجنّح هادي سيد جبر:

ـ خسه... الذي يقبل البيع والشراء هو وهم الوطن.. وهم الوطن وليس الوطن.

محمد هني الياسري كان صعب النقاش جداً، لم يفلح أحد منا في تقليل همته.

كان يحمل يقيناً فولاذياً لا تستطيع كل قذائف العالم أن تخرمه وتزعزعه.

محمد هني الياسري كان لا يرضيه أي حديث سوى حديث زميله هادي سيد جبر، لكون هذا الثاني مثله يعتقد بأنَّ كل ما يبعد عن الوطن، هو ثرثرة سخيفة، يحاول البعض تغطية جبنه ومصلحته الشخصية بكلام مسبوك ومصطلحات حضرية غبية، تدّعي لنفسها الثقافة والفلسفة وفهم الحياة.

هادي سيد جبر ومحمد هني الياسري، كانا آخر جنود الدفاع عن الماء، وكانا آخر ثبات القناعة أيضاً.

ذهبت الأهوار، لكن جفت قبلها منابع الإيمان واليقين، ليس في السياسة وإنما في كل شيء.

أضحى الناس مثل أكوام قصب جاف يتوسل عود ثقاب يحوله إلى رماد، ليذهب دخاناً تذره الرياح إلى آخر نقطة الضياع واللاشيء، لقد كان الماء بداية الحياة ومحبرة الحضارة، ألم يقل عنه الإلّه إنه جعل من الماء كل شيء حي؟!

نحن فقدنا الماء وقتلنا الانسان وأضعنا المعنى.

لا أعرف لماذا تم اختيار اللون الأزرق لمقاعد الانتظار، ليس في محطة قطار براماتا، فقط، وإنما في جميع مقاعد الانتظار لجميع المحطات للقطارات والباصات أيضاً.

هل هذه علامة دالة على الارتباط المخيالي لدى الانسان بأنَّ المطية الأولى هي الزوارق؟!

هذا اللون الأزرق الجميل الدال على الأمل، هو لدينا نحن العرب دلالة على النحس. وقديماً كان العرب يذمّون صاحب العيون الزرق، وللأسف إنَّ زرقاء اليمامة تلكم الجميلة الفاتنة، قد أكدت هذا التشاؤم.

التشاؤم الذي جعل الكثير من العرب يبتعدون عن البحر عند بنائهم المدن المصرية، ورعب جيش طارق بن زياد في معركته الشهيرة، أما نحن في البصرة فرغم أنَّ البحر نافذتنا العريقة إلّا أنّ قلة فقط الذين شاهدوا البحر.

الأرض علامة الثبات، لهذا كنا نكره التغير ونرتعب منه؟!

لا تزال صور بكاء بعض الرجال والنساء، بمجرد إقبالنا على صعود بحر الصين، بعد أن وصلنا ماليزيا، صوراً متدلية في جمجمة الذاكرة، صوراً مُعلقة بخيوط التساؤل.

كنتُ مندهشاً من هذا البكاء والتراخي المفرط لمجرد فكرة عبورنا بحراً «سوف» نعبره، وكأننا لسنا أبناء مدن الماء أصلاً!

رفيق المسافات الموحشة نبيل هادي الحلفي، كان يفتش في حقيبتي غير مكترث بشيء سوى معدته:

ـ «راح يقطعني الجوع.. على قول حماده سياه: صرت من الجوع أسحب نفس الجكَاره ابطيزي.

الله ما أعجب هؤلاء الناس، هم يبكون خشية على غرق عمر لم يعيشوه أبداً.. مجانين.. بابا، حتى الغرق في المحيط بالنسبة لنا نوع من النجاة يحتاج له الكثير من الحظ.

خره بيك حماده سياه، امدبر وضعك وجاي ويانه جان خرعنه بيك الأطفال وسكتتهم هسه!».

الصمت ماهية معينة داخل المنزل، هو غيرها فيما إذا دبَّ نمل السكون في شوارع المدن الغريبة.

والصمت طقس مختلف عن جميع الحالات، في محطة قطار فارغة تماماً.

أنتَ الآن وسط قبيلة الوهم وشريعة الخيال ومحاولة القبض على حنجرة الهواجس الداخلية بمعصم اليد وعصمة الألم.

في محطة القطار الخالية، سوف تسأل مراراً وأنتَ تحكّ على زناد الوقت:

«من يخلّصني من نفسي من؟!».

هنا حتى لو كانت محطة القطار مبنية على أعلى شاهق

جبلي في العالم، وكانت من دون سقف، سوف تشعر أنك تعيش داخل قبو.

إنه لمن الصعب جداً أن تصارح نفسك:

الانسان عبارة عن قبو مظلم لا يعرفه حتى صاحبه، ولن يُضاء هذا القبو إلا بشمعة الحب، فالآخر هو النعيم وليس الجحيم.

يااه.. كم الأمر موحش للغاية، فالانسان وحده المنزل الذي يخلو من الأبواب والنوافذ.

الدخول الى الانسان ومعرفته، كذبة، والخروج والنّط خارج جدرانه مستحيل ووهم كبير.

يااه.. كم هي ورطة كبيرة أن تعي كونك انساناً.. بالفعل إنها كارثة!!

.....

في الأهوار حيث الماء والمشحوف والشِّعر الشعبي والقمر، كل شيء واضح ومريح.

حتى غموض الصمت وهدوء الحيوانات وسكون الماء والبردي، يبدو خفيفاً ولا يولد أي نوع من الغربة للذات مع نفسها.

حتى في أيام القتال من أجل استرجاع الماء، كانت عبوة التنوير تبدو في السماء، وكأنها تريد أن تسامر القمر وتعينه على تصيُّد الشِعر والكلمات الخارجة من روح المعدان.

تلك الروح المكشوفة الأنيسة.. الهور بأجمعه ديوان ضيافة مفتوح للجميع.

كان محمد هني الياسري، يلتفت إلى حماده سياه، في آخر ليلة بتنا فيها كمقاتلين يريدون تقديم استقالتهم من واجب حماية بقية القصب، حيث بات التفكير جدياً ونهائياً بضرورة ترك القتال والتوجه إلى داخل العمق الإيراني.

كانت تلك هي العملية الأخيرة، وكان محمد هني الياسري، يصلح مشط الرصاص للبندقية ويقول بدون أن يلتفت:

ـ «من يترك الأهوار سوف تصيبه لعنة الغربة».

نعم من يترك عشّه الأول سوف تكون الغربة جزءاً لا يتجزأ من نسيج خلاياه.. سيكون غريباً مدى العمر حتى لو رجع مرة أخرى، فالخروج ذنب لا يقبل التوبة.

أخذت هذه الكلمة تهز ناقوس الوجدان.. شعرتُ بأن محطة قطار براماتا، أخذت تصرخ.. تصرخ بوجع رثائي سمفوني يتيم.. كان ذلك صوت الذاكرة البعيد، حيث انقطع حبل السرة بين الروح وبين عالم البراءة المغدور.

4

محطة القطار تعيد صقل الذاكرة وقدرة النسيان معاً.

المحطة تعلمك أنَّ المدينة المعاشة فعلاً، هي روضة أطفال حاضرة.

أما حين تبتعد وتنحدر بك الأقدار إلى قاع المنفى والغياب، أو تصبح تلك المنازل والناس والشوارع، مجرد ذكرى وصور خيالية، فإن المدينة سوف تكبر مع تقدم سنين عمرك.

المدينة هنا تبلغ درجة: المدرسة.. المدرسة بالمعنى العميق للمعرفة ومفهوم التعليم والتعلّم.

أخطر ما في المدن المتطورة الحديثة، أنها تقدم ملهاة سطحية حيث تنتهي صلة الإنسان بالوجود، بانتهاء فترة العمل والراحة واللهاث خلف شراء أدوات المنزل الجديدة.

بخلاف الأهوار وحياة النخيل والقصب وعشّ الطين الأول.

هناك الأشياء: القمر.. الماء.. المشاحيف.. أغاني المعدان.

ليست حضورات حيادية، وإنما معان متشابكة مع باطن الانسان الداخلي، في مزيج دائم التفاعل، حيث يسود مناخ من الأمن والتكافل المتبادل.

وحده توافر السكينة والأمن، هو المعقول بأنّ نسميه: الحياة.

ـ «ماذا ستجدون في تلكم المدن البعيدة؟!

عملاً... فلوساً.. نساءً.

هذا ثمن بخس للشعور بالانتماء.

الشجرة التي يتم قلعها وشتلها في بلاد غريبة، لن تثمر ذات الثمر.. أبداً».

كان هادي سيد جبر، يقول كلماته بعصبية ونحن نتهرب من نظرات عيونه القادحة.

لم تكن كلمات.. كانت الذخيرة الأخيرة لرصاص مشروع المعارضة العراقية.

كم طاف مشروع المعارضة العراقية في دول كثيرة، كعريضة تتنقّل على مكاتب دوائر تشغلها الأشباح، حتى كانت الخاتمة تمام الفشل، وتسليم وثيقة الاستقالة قبل بدء العمل.

إلى اليوم كلما شاهدتُ محطة أو مطاراً، يندّاع حجر السؤال على رأس الأماني:

هل كانت تنقلات المعارضة بلا جلسات المحطات، فلم تحسن التأمل بميراث هذا الشعب الكارثة؟!

تذكرت كيف أنّ عمار عبد العزيز الحكيم، سافر كالبرق إلى أوروبا وعاد، في زمن لم يكن متاح أن تملك دراجة هوائية صدئة تنقلك إلى فرن مخبز تستجدي أمامه طقوس عبادة الجوع والحرمان.

أخذ عمار عبد العزيز الحكيم يحاضر فينا في ساحة مدرسة الحكمة الواقعة في سوق «كزر خان»، كيف أنّ العيش في أوروبا جحيم وأننا لا نعرف قيمة الجمهورية الاسلامية في إيران.

في حين أنّ كل الذي استطاع أن يقوله ابن المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، هو أنّه شاهد الشبان العراقيين يعملون في أوروبا، العمل مزاولة غريبة للمترفين.

كان الجميع يشعر أنّ عمار يمارس البصاق والتقيؤ الاختياري على جراحنا ويهزء بكوننا نمتلك القدرة العقلية أيضاً، وأنّه ما زلنا نحمل بعض جمر التفكير في هذه المصحة الكبيرة.

أبناء العوائل السياسية والدينية (فالسياسة والدين موروث عائلي لدينا)، وأتباعهم وحملة الطبول الجوفاء لهم، يسافرون ويجوبون الدنيا، ثم يعودون بوجوه متوردة، يخرج كل منهم مسبحة من جيبه ويحاول تغيير لهجته ونبرة صوته:

ـ «الله يكفينا شر الفساد».

ولكأن الفساد هو محض علاقة الانسان بالجنس، وحصراً سلوكية إشباع الفقير الذي لا يمتلك مهوراً يشتري بها النساء مثنى ورباع علناً، وجلسات بيوتات سرية، خفية.

بعد انتهاء الحديث المكرر للمسؤول العراقي، كانت صدورنا ترتفع كبركان مكظوم تنزل حممه بجحيم ذكرى مقبرة جماعية.

كان أبناء الذوات المترفون، ينتصبون كحراب تنغرز على خشبة الأماني اليابسة ويؤدون دورهم التهريجي المعتاد.. كانوا يروون عن أنفسهم الكثير الكثير، بيد أنّ الغريب أن لا أحد تحدث منهم عن محطة قطار أو باص.

وكيف يفعلون ذلك وهم أناس لم تُصنع التكسي والسيارات الخاصة إلا لأجلهم.

الباصات والقطارات، بدرجاتها العادية الجرح والرثاثة، لا تليق إلا بسلالة الضحية فقط، تلك السلالة التي تعيش على كرسي انتظار قطار، وتموت على كرسي اعدام كهربائي.

أما الجلاد وقبيلته، فلهم ممالكهم الخاصة بشتى أنواعها وأكبر مساحة فيها للبشاعة.

بعد انتهاء فترة الدوام في مدرسة الحكمة التابعة لمحمد باقر الحكيم، حيث أنهى ابن أخيه عمار عبد العزيز الحكيم

«حكمته الخالدة»، شعرتُ أنّ حماده سياه كان مهموماً بشكل مضاعف غير معتاد.

أخذ يقلّب قميصه ويمشي، عينه لا تفارق نعله البلاستيكي المتردي، المربوطة جوانبه بسلك معدني، فيما كعب قدمه ينزلق على الأرض بعد أن تآكل ذلك النعل.

قلتُ له وأنا أقدم له سيجارة «أشنو» وهي أردأ نوع سجائر ليس في إيران وإنما في العالم كله:

ـ حماده.. أعرف أنّ كلام عمار البارد، قلب عليك مواجع أحلام السفر.. لكن..

ولم يمهلني حماده أن أكمل.

ـ «أنا أعيش في حلم لا أرضى أن أنساه أو أجعله ينقطع، حتى يذكرني ابن الحكيم به».

ـ لكني أراك مهموماً بشدة لأمر آخر؟!

ـ «طيلة فترة كلام عمار الحكيم، كنتُ أدقق بنظافة ثيابه وعمامته، وكأني لم أشاهده نظيفاً من قبل.

هذه أول مرة أشعر بالضيق من ملابسي الرثة.

كنتُ أدقق بملابس عمار التي لم يكدح بها فلساً واحداً، ولم أسمع كلمة واحدة من حديثه عن أوروبا، لم ينتابني مثل هذا الشعور من قبل إزاء شهوة أن يكون لي قميص وحذاء جديد».

توقف حماده عن الكلام، شعرتُ أن اللغة ـ الطفل، داهمها قطار جبلي محمل بجنود البرابرة الجدد.

لمحتُ في عيون حماده سياه، بريقاً لم أشهده فيه من قبل، كانت عيونه تلمع.. التماع سكينة اللص في ظلام المنزل المستباح.

رطّب شفتيه بلسانه.. ثم هاج:

ـ «اسمع.. عليك أن تتدبر أمرك. أما أنا فسوف أقفز من هذا القطار الرتيب».

ـ تقصد سوف تخون نفسك؟

صرخ حماده بصوت عال:

«لا تلعب معي لعبة الوفاء.. أنتَ مثلي تركت محمد هني الياسري وهادي سيد جبر، يلاقون حتفهم لوحدهم».

اسمع: «لا وفاء خارج الهور.. لا وفاء».

ـ هذه مغالطة..

ـ «أنتَ تجيد تبرير أخطائك».

ـ عن أي أخطاء تتحدث.. أين الصواب في مواصلة معركة غنيمتها تقع لعدوك؟!

صدام حسين ليس عدونا الوحيد.. صدام ليس رجلاً واحداً فقط.. صدام حسين يمثل ممارسة، وهذه الممارسة أحد محترفيها هم قادة المعارضة أنفسهم، انظر كيف تحول المجلس الأعلى إلى كرسي محتكر متعالٍ يتناقل بالوراثة.

ثم إني أعمل على مشروع كتابي، وما دام بيدي القلم، ولم أنتمِ لأحد، فأنا ما زلتُ أقاتل. وقد تكلفني معركة الكتابة، خسائر أشد من أضاحي معارك الأهوار والدفاع عن الماء.

رمى أحمد سياه بسيجارته بعيداً ورفع يده ملوحاً ذات اليمين وذات الشمال:

ـ «احتفظ بهذه الفلسفة لنفسك، أما أنا فالعيش في مدن الغرب النظيفة السهلة حيث يسهل هناك رفع أفخاذ النساء، هو كل الحقيقة التي أؤمن بها اليوم ولم أعد اكترث لأي شيء سواها.

كل طريق لا يوصل لترف العيش والحياة السهلة، هو مجرد وهم نلبسه لباس الثقافة والتفلسف».

لم ينتظر حماده سياه ردي عليه..

حماده الآن يحمل عقيدة وليس مجرد قناعة ما.

الايمان بضرورة ممارسة أي شيء مع أيّ كان من أجل الوصول إلى مدينة أفلاطون وعالم الغرب المريح، هي عقيدة باتت الأوسع انتشاراً بين الناس بدون فرق بين متديّن وملحد.. فقير وغني.. سياسي مترع الغنى والشهرة وبائع سجائر متجول.. لقد سقط المثل الأعلى للناس فلم يعد سوى البحث عن بقايا فتات الحظّ علهم لا يخسرونه أيضاً!

تركت حماده وأنا أمنّي نفسي أن يتراجع عن عزمه هذا. أخذت أحثّ الخُطى متعثّراً بالناس في زقاق سوق «كزر خان»

الضيق، كي آخذ خشبتي التي أبتاع فيها السجائر في منطقة «ميدان مطهري» القريب من محطة قطار مدينة قم الرئيسية.

تلك المحطة لا تشبه محطة قطار براماتا في مدينة سدني الاسترالية.. بل لا تشبه أي محطة قطار على الكرة الأرضية، حيث أنّ الأصدقاء لا يعوّضون والمحطات لا تتشابه.

أخذتُ أقلب علب السجائر وأرتبها فوق الخشبة منتظراً مرور أحد يشتري من سجائري.. أخذتُ أحملق في أعمدة الكهرباء لمدينة قم، والتي كانت تشبه أقلاماً عاطلة لأقوام عمالقة منقرضين.

تراءى لي شبح محمد هني الياسري وهادي سيد جبر، كانا معاً كعادتهما.. كل منهما مطرق الرأس وكأن الكوكب الأرضي مركب على رقبته.. كان كلاهما حزين وذو قسمات اعتدنا أن نشاهدها فكأن الفرح نوع من الخيانة.

كانت ملابس محمد هني الياسري وهادي سيد جبر، رطبة مبللة بمياه الأهوار.

كان الماء يتقاطر منهما، ما أن يلامس أرض المحطة حتى يتحول إلى دم عبيط مخلوط بحبر من نوع قديم.

أخذ شبحاهما يتواريا وهما يتمتمان بكلمات الرصاص:

المحطات الفارغة محراب من تنكرت له نفسه والسلطة.

. . . . . .

5

ـ «عجيب أمر هذا الهور، حتى الخنازير فيه تختلف عن كل خنازير العالم، فهي كبيرة وقوية، وهي مهاجمة وليست مدافعة مثل بقية الخنازير في أوروبا وآسيا؛ لماذا العراق فيه خنازير تحمل كل هذه الحقارة أكثر من جميع خنازير العالم؟!!».

هكذا قال أخُ حامد حماده سياه مستغرباً.

حامد هو أخ حماده الوحيد، لكن لا أحد منهما يحادث الآخر أو يقرب له أبداً، كل منهما يتعامل بأنّ الثاني غير موجود تماماً.

شنغاب، رجل الهور العجوز وأكبر الموجودين سناً، حاول إصلاحهما مراراً، لكن كل منهما قال له أن لا مشكلة بينهما، فقط إنهما لا يجيدان التحدث إلى بعضهم البعض.. هي عادة سيئة لا غير.

شنغاب كان يحدّق مثل فحل جاموس كهل، يدرك بأنّ

الذي أمامه طين لزج متحرك لا قاع له، إن داس عليه سوف يغوص به ويغرق بلا ثمن. لذا كان شنغاب يترك القصة لكنه يعود بعد فترة إلى محاولة اصلاحهما مرة أخرى.

«لا بد أنّ بينهما قصة على امرأة.. النسوان آآاه النسوان.. أخطر الأشياء على الرجولة والمرأة، لكن أية قيمة للرجل بلا أنثاه.. حيرة.

أمر هؤلاء الناس أبناء المدن، يحيّر.. كيف يستطيع الأخ أن لا يحادث أخاه كيف؟!!».

هادي سيد جبر كان ينظف بندقيته كالعادة ويجيبه بدون أن يرفع رأسه إلى شنغاب:

ـ هؤلاء الناس من طينة ثانية يا عمي.. طينة المدينة الملوثة بأدخنة السيارات ومصانع الأموال والتنافس.

حتى قلوبهم اصطناعية لذا فعواطفهم كاذبة أو سريعة التغير والنسيان.

يضرب شنغاب يداً على يد ويقفز وكأنما نائم صبّ فوقه شلال ماء مثلج:

ـ «افه.. افه.. قلب واصطناعي.. يايابه!!».

حامد كان بخلاف أخيه حماده في كل شيء فهو هزلي ولا يبالي، قصير وأبيض اللون، كان لا ينام بدون «كِلّه» وهي خيمة من القماش الأبيض الرقيق، تمنع عنه عضات الذباب

والبق، فهذه الحشرات لفرط كبر حجمها في الأهوار تعض لا أنها تقرص.

كان حامد كثير التدهين لنفسه حماية من الشمس والبرغوث والحشرات الأخرى، وما أن تتحرك القوارب صوب مهمة ما، حتى يعيد تسريحة شعر رأسه، وكأننا نستقبل حفلة أو مرقصاً.

لم يكن حامد مع فريق المقاتلين وإنما مع فريق جلب الطعام وبعث الأخبار إلى منظمة العمل (= أحد أحزاب المعارضة العراقية)، والمخابرات الإيرانية؛ كان يلتمس من أفواه العابرين ضمن العمليات الجهادية ضد حكومة صدام حسين، حتى أسعار المصانع المدنية العراقية. كانوا يحتفظون بها لأجل الاختباء في ممراتها السرية أو المتروكة، اذا ما واجهتهم مطاردات وساعات عسرة.

حاول حامد وبعض أصدقائه إقناع المجموعة، أخذ الخرائط لهذه المصانع المدنية العراقية حيث أصرّت مجموعة المقاتلين على كون الخرائط فيها روح البلاد فإذا وضعت بيد الإيرانيين فإن هذا معناه تسليم العراق اليهم:

ـ «سوف يقبض الإيرانيون على العراق من خصيتيه»، حسب تعبيرهم.

لكن في الصباح اختفى حامد واختفت الخرائط معه. بعد ثلاث سنوات حينما ندخل إلى المدن الإيرانية والى مدينة

«قم» بالذات، سنعرف أنّ حامد قد باع الخرائط بمبلغ خيالي (بالنسبة لنا في ذلك الظرف) للمخابرات الإيرانية.. لقد كانت صفقة سوف تتبعها صفقات أخرى أكثر ربحاً وأشد وجعاً.

لم تكن خرائط مصانع مدنية هذه المرة، وإنما مجاميع من كتب نادرة ومخطوطات ثمينة، تمّت سرقتها من مكتبات نينوى وبغداد والنجف.

كان حامد يبتز الإيرانيين، بأنهم إذا لم يعطوه الثمن الذي يرضيه، فإنه سوف يبيع الكتب إلى الوهابيين السعوديين، الذين يبحثون عن هذه الكتب من أجل حرقها وإنزال عقوبة الإعدام والتصفية بحقها، فهذه الكتب جزء لا يتجزأ من الرافضة والرفض والتمرد، ودليل على وجود تاريخ وثقافة أخرى في تاريخنا غير ثقافة تصنيم السلف وإلغاء العقل باسم البدعة.

حاولنا مراراً أن نلتقي بحامد، لكن حامد الذي خبر طريقة تحرّينا وكيفية بحثنا عن الأشياء، كان يحسن الهرب منا دائماً.

بيد أنَّ حامد، وعلى خلاف طريقة تفكير أخيه حماده، لم يكن يفكر بالخروج إلى استراليا أو إلى سواها من البلدان الأخرى.

«العراق كنز، ومن يترك الكنز ويبحث عن المعنى فهو غبي أو أعمى».

هكذا كان يردد، كلما استغرب من الشباب كيف أنه لا يفكر بالخروج إلى الدول الغربية.

وبالفعل عاد حامد إلى العراق في ثالث أسبوع من سقوط حكومة صدام حسين. فكان أول من أدخل المخدرات والحشيشة والترياك، بسيارة للحمولة متوسطة الحجم، وكأنه كان يقوم بنقل طحين أو أكياس من الخضار.

ورغم ضخامة العملية، فإنّه لم يقنع بها، فقد بات «الكنز» أمامه مفتوحاً ومبعثراً، الآن.

العراق الآن عبارة عن جزيرة بدائية، لا يعيش فيها إلا من كان حاد الأنياب..

أنياب كبيرة وحادة مثل الخنجر، هكذا نظم حامد أعصابه مكوناً من زملاء لنا كانوا معنا في قتال الأهوار، فافتتح بهم في ذلك الانفلات الأمني بعد سقوط حكومة حزب البعث العراقي، بنكاً مصرفياً، بيد أنه ما أن انجمعت الأموال في أيديهم وهم يضحكون بهستيريا، والبنادق تصفق بأيديهم، حتى فاجأتهم عصابة أخرى من العراقيين قد احترفوا قطع الطريق والسّلب طيلة مرحلة الحصار الاقتصادي على العراق.

غرة المفاجأة لم تسعف حامد ومجموعته أن يعكسوا اتجاه بوصلة الموت، حيث أنّ المجموعة الثانية كانت جاهزة للقتال لكونهم، كانوا يقتحمون مكاناً جديداً يعرفون أنّه متخم

بالحراس. في حين أنّ حامد ومجموعته كانوا ثملين بلذة الانتصار وقتل الحرس وحمل أكياس المال.

كان حامد يخور كثور ذبيح ويتقلب مثل تمساح علق فمه بسلسلة السفينة.

أخذ كومة من الأموال المتكوّمة أمامه: دولارات أميركية.. يورو.. عملات عراقية فئة 250 ديناراً تحمل صورة صدام حسين.. كان الدم يتجمع بيده وأخذ يغطي صورة صدام حسين المثبتة في الورقة النقدية، بدا صدام حسين بفعل خيوط الدم المنساحة من كف حامد، بأنياب حمراء كبيرة وعيون تشبه النار، فغدا صدام حسين أشبه بخنزير شيطاني.

تطلع حامد بالصورة حتى ذابت بالدم نهائياً. وهو مطروح على الأرض شاخب الجرح؛ قلب حامد رأسه بصعوبة. شاهد أجساد رفاقه تتراعش مثل جواميس صغيرة تلدغها أفاع صحراوية سامه.

كانت المجموعة المنتصرة الملثمة تدوس عليهم وهي تجمع الأموال غير مبالين بالذين قتلوهم، إذ بات في العراق مجرمون لا مثيل لهم قسوة ووحشية.

حاول حامد رفع يده فلم تطاوعه، أخذ سيل من نمل ودود الخدر يسري في العروق والأعضاء، أخذت الذاكرة تثرثر في جمجمة ما تبقى من الوقت، شعر حامد أنّ الروح تحتفظ بأوراق لم يستطع حرقها الاهمال.

تصاعدت إليه حفلات مدرسية حزبية وأخرى خارج أوقات الدوام، وحينما بلغ الكلية أخذ هو من يشرف على تلك الجلسات الأسبوعية لحزب البعث العراقي، شارحاً أقوال «القائد صدام حسين الذي حفظه وحفظ كلماته الخالدة».

تصاعدت إلى حامد تلك الذكريات مثل رائحة أبط حامضة لزجة التصقت ببلعومه كمخلوق رخوي كريه.

آآاه.. اليد اليسرى أضحت لا تتحرك هي الأخرى.. القدم كذلك.. حتى الرموش لم تعد تستجيب لأوامر الارادة أو ردات الفعل عن هذا الذباب الذي أخذ يتجمع فوق الوجه.

كل شيء بات ينسحب خارج مملكة الروح وكأن أعضاء البدن جنود تفر من المعركة.

تذكر حامد الحرس الجمهوري وهو يطارد المقاتلين في انتفاضة شعبان سنة 1991، حيث كان حامد يتفرج عليهم من ثقب باب المنزل ويشتم هؤلاء المعدان «الأشروقية» الأغبياء.

تذكر حامد الحصار الاقتصادي الذي بات لا يطاق حتى أنَّ جميع هبات حزب البعث وحكومة صدام حسين باتت لا تقدم شيئاً، فكان ترحابه كبيراً بأن كلفه حزب البعث أن يتسلل خارج الحدود والانخراط مع جنود الدفاع عن الماء ومن ثم الدخول إلى إيران، ولم ينس حامد كيف أنهم كرروا عليه بأن يكون جديراً بثقة الحزب والولاء للقائد صدام

حسين، الذي كانت صورته الكبيرة تحتل ثلث الحائط في مديرية المخابرات وغرفة التكليف السري خارج القطر.

تذكر حامد وكأس الجسد المشطور ينزّ بآخر قطرات مشروب الدم، إلحاحات شنغاب وهو يحاول أن يصلحه مع أخيه حماده سياه.

تذكر حامد هادي سيد جبر، ذلك الرجل الغريب الأطوار الجلد الملامح الذي لا تفرق بينه وبين بندقيته أبداً ولا يشبه شيء سوى قصب الهور وصديقه محمد هني الياسري.

تذكر حامد وجسده قد تحول الى خشبة رطبة، كيف كان يقول هادي سيد جبر: إنّ رجالات المدينة تم خلقهم من طينة مختلفة، طينة تلوثت بأدخنة السيارات والمصانع والأموال، وهي نتانة لا يقاس بها شيء سوى عفونة المعيدي حينما يخون الماء ويحول بلمه وزورقه أداة في تجارة المخدرات والأدوات المسروقة، حيث يكون المعيدي جيفة تنتفخ بأمراض اقترابه من أشياء أهل المدينة.

أخذ حامد يشعر بهجوم جبال من النوم على دماغه وصدره.. الصدر الذي فيه القلب، «كم أتمنى أن أستطيع رفع يدي وتحسس قلبي الآن، هل هو حقيقي أم اصطناعي، كما كان يقول شنغاب».

أخذ حامد يشعر أنّ بإمكانه أن ينام بدون ثمة حاجة لإطباق الرموش المتمردة على الطاعة إطار الهواء الذي هب

فجأة ودخل بصخب إلى بناية البنك المسلوب، صورة عملة عراقية نقدية، كانت صورة صدام حسين تتقلب وهي ملطخة بالدم؛ تذكر حامد أخاه حماده، وشعر برغبة جامحة بأن يضمه ويحتضنه ويكلّمه.

تذكر حامد خنازير الهور المتوحشة، وكيف كان يسأل سؤاله ذاك:

لماذا العراق فيه خنازير تحمل كل هذه الحقارة أكثر من جميع خنازير العالم؟!

. . . . . .

6

كان هادي سيد جبر منكبّاً على بندقيته يتحسسها برقة تثير القشعريرة في الروح والجسد.

لم تكن بندقيته، كان هادي سيد جبر يتفقد قلماً يغطسه بمحبرة الهور الباذخة العطاء... الكرم الخالد والمستمر والأزلي، حتى لو جف الماء وباتت القوارب بفعل حكومة صدام حسين، مثل أطفال يتامى يتقرفصون على قارعة اليابسة والطريق.

كان هادي سيد جبر، منكباً على بندقيته، كالطفل الهيمان بدميته الوحيدة التي تركها له أبوه. فكأن الهور وقضية تحرير العراق من عصابة حزب البعث وصدام حسين، شأنه الخاص به وحده، فلا تهم كل تلك الجموع الغفيرة التي تركت الدفاع عن المياه، فتسللت إلى المدن الإيرانية، متدثرة بكتب الحوزة والعلوم الدينية، أو الانشغال بوجبات الطعام العملاقة في

معسكرات فيلق بدر، أو الانشغال بتزوير أوراق للسفر باتجاه الدول البعيدة:

ـ «أن تترك الأمر لكون الآخرين تركوه، يناقض أنك مؤمن به.. الإيمان قضية فردية، لذا كانت شهادة».

وكالعادة تصاعد الصياح بين حماده وبين هادي سيد جبر، وكأنهما لم يتحادثا مرات عديدة بذات الموضوع، فكان حماده سياه يصيح:

ـ أنت معيدي وشروقي (= أي من سكان الجنوب العراقي) لا تفرق بين الشهادة والانتحار.

فيجيبه هادي سيد جبر:

ـ وأنت حضري (= من سكان المدينة المترفين) لذا تجيد فلسفة الهزيمة.

ثم يلتفت إلي هادي سيد جبر ويكمل:

ـ «ما هو قولك يا صديقي البدوي، هؤلاء الحضر يجيدون صناعة الهذر».

لم أستطع أن أجيبه.. هادي سيد جبر لا يبحث عن الاجابة في سلال الآخرين.

هادي سيد جبر الشاب الصلد العضلات، كان يشبه منهجية أبي، أبي جاسم محمد نجار الهموم، آخر رجالات ثورة

العشرين الذي كان يشير إلى صدره وإلى أشجار الأثل والصفصاف:

ـ «لا عليك بالصدى، الاجابة هنا في الصدر أو في هذا الأثل والصفصاف».

محتمل أنَّ هذا التشابه الكبير ما بين الحاج جاسم نجار الهموم وبين ابن الهور هادي سيد جبر، هو الذي شدني بقوة لوثاق بندقية هادي سيد جبر، كعملية تعويض سايكولوجي نفسي عن يتم لي موجع فيه الكثير من المرارة.

كان أبي رغم كثرة معارفه وانشغاله الدائم في العمل، إلّا أنّه كان في العمق يعيش وحده.

لا أنسى نظرته الهائمة في صحراء أثل مدينة الزبير، فيسرح، حيث يسرح دخان سيجارته التي لا تنطفىء في عوالم تأبى أن تكون مجرد ماض عابر.

تلك النظرات لذلك الشيخ الكبير، كان يحملها هادي سيد جبر، كان يحدق في صورة القمر المنعكسة على الماء، وكأنه يتمدد على فكرة أنّ القمر ليس في السماء: القمر لا يكون قمراً خارج الماء.. القمر مثل السمكة!

كنا نجلس في مشاحيف وزوارق صغيرة تتقلب برفق مثل «كاروك» الأطفال الرضع، منتظرين ساعة التحرك صوب معسكر الجيش الحكومي لعصابة صدام حسين، الذي أطبق حصاره حول الماء.

كانت الهواجس تفيض مثل البركان، وكانت الذكرى تقف ساكنة مثل الصفر، ثم تنفجر بملايين الأرقام اللامتناهية.

البعض كان يصلي جالساً في القارب، والبعض يُسبّح بأذكار دينية معينة، وآخر يقلّب صور عائلته في دفتر الخيال.

كنا ننتظر وكان كل زورق هو عبارة عن محطة لقطار الموت.

العجيب أنّه لم يكن أحدنا يتعامل مع الموت كما أخذنا نتعامل معه الآن. لم يكن الموت هو ضرب من الخيبة، وإلّا كيف عاش شعب الماء خارج الماء؟!

لا بد إذن أن تكون الأسماء قد بدّلت هويتها واستبدلت رئة روح أخرى.

«روح أخرى».. في كل مرة أجلس فيها في محطة قطار فارغة، اسأل الريح ذات السؤال:

هل المحطة روح أخرى؟!

سؤال لا يفهمه من يمتطي سيارة خاصة وبشكل دائم.

ترك السيارات الخاصة أمر ضروري للاتصال بروح الأشياء ودواخل مكونات المدينة اللامرئية.

كثيراً ما حدقت بشبيبة عرب وأفارقة وصينيين، يقفزون فوق الحواجز الأوتوماتيكية، متفادين دفع بطاقة صعود القطار.. وكنتُ أسأل:

جالية تخون القطار كيف تريد منها الوفاء للمهجر أو للوطن؟!

هؤلاء يريدون كل شيء بلا ثمن.. هل يعقل أن يكونوا معارضة أو حملة مشاعل تعيد الضياء لبلد السواد والظلمات؟!

هب نسيم هواء عليل امتشقته ضلوع الصدر، كان الهواء يهمهم:

هؤلاء ظلمة قديمة.. من يسرق ثمن صعود القطار الزهيد، يغتال الوطن بثمن أزهد.

كان هادي سيد جبر، يقاتل ويجلب السلاح ويوزعه، ولم يسأل مرة واحدة عن النقص الدائم في السلاح.

لدينا نحن المعدان والبدو، أنّه من العيب في منطق الماء الذي تعلمناه أن نسأل عن الشيء الذي نعطيه.

هل سمعتَ مرة أنّ المطر أو ماء السواقي، سأل الأرض من أين لكِ كل هذا الجدب؟!

. . . . . .

لا أعرف منبع هذا الإحساس تماماً:

كلما جلستُ في المحطة أسمع الجدران والمقاعد تتحدث عن قصيدة أو حكاية مفقودة.

شعور بات كثيفاً جداً بعدما أخذت تتصرم فيه أيام بطاقة الإقامة المؤقتة في استراليا.

هل يكون الرحيل هو مرصد فلكي لمجرات التأمل بمدن محتشدة بالسكان تترقب الأمل.

أم لعله شعور الوحدة هو من ولّد النوبات والطواغيت معاً؟!

أخذتُ أقلّب بطاقة الإقامة المؤقتة، أدقّق بملامح صورتي التي هي أول صورة تم التقاطها لي بعد وصولي إلى استراليا.

صورة طوّحتها شمس الترقّب وملح البحر. وعينان توقف فيهما الضوء على مشهد غرق سفينة تيتانك الفقراء.

كانت البطاقة مجرد كارتونة بيضاء في ظهرها صورة لحيوان الكنغر وطائر النعامة، وفي وسطها اسمي، مع ملاحظة أني شخص مؤقت الوجود في هذا البلد، وأنه لا يحق لي العودة فيما لو سافرت إلى أي مكان.

هذه البطاقة كانت هي كذلك روح أخرى ومحطة قطار سيصل متأخراً كما العادة.

أن تكون دائماً الأخير، شيء سوف يحملك بفائض فلسفي موجع:

آخر من دخل إلى إيران.. آخر من خرج صوب استراليا.. آخر المتبقين من جند الماء.. آخر من سيدلي بشهادته للعدم.. آخر من سوف تنظر الحكومة الاسترالية

بشأن إقامته المؤقتة.. هكذا تكون أنت على الدوام تلملم وريقات أمانيك مع أوراق أشجار الخريف المتناثرة.

في سباقات القتال والشتات والكتابة، يبدو العد، أكثر من فلسفة واحدة.

أن تتأخر أنت غير أن يتأخر القطار عنك، وأن تتأخر عن لقاء حبيب غير أن يتأخر الحبيب عنك. ما هو أفدح هو أن يكون التأخر هو تمام ماهيتك وخيبتك ومفزعك الوجودي الوحيد المقهور عليه.

كان هادي سيد جبر منكباً على بندقيته يمسح عليها بحس مرهف، وكأنه يتحسس عشيقة قديمة افتقدها.

ساعة الصفر اندلع نورها.. تصاعدت أصوات مخلوطة بفتور الماء المتشقق بتقدم المشاحيف والزوارق:

كان القمر يبتسم على وجه الماء المخلوط بزيت تنظيف البنادق وأنابيب الهاون وأعقاب السجائر.

كانت الأعصاب مستفزة أكثر من سطح الماء الذي تعكر بحركة الزوارق والمشاحيف.

الأنفاس مكبوتة مثل صمت القصب والبردي، والذاكرة متخمة أكثر من مخزن البندقية.

وحده كان هادي سيد جبر، جالساً في زورقه هادئاً تام السكينة وكأنه جزء من خشبة الزورق، كان يجلس جلسة الوحيد داخل المحطة حيث لا أحد.

ارتفعت الزوارق على كفوف الماء، كنا أشبه بمحطة تزحف صوب قطارها.. ذلك القطار الذي وحده لم يكن متأخراً عن موعده، وإنما كان عاجلاً ومباغتاً.. كان وصولاً يناقض الزوال ويحتضن الفقد.

.....

7

كان القمر بدراً واضحاً جداً.. ولأول مرة أشعر بأنَّ للقمر وضوحاً مريباً ومزعجاً.

بل كان وضوحاً غامضاً، فالأمر الذي لا يمكن تفسيره: كيف بدا القمر وليس هناك صورة معكوسة له على الماء.. كان الماء فضة خالصة من جميع الشوائب.

كأنَّ القصب والقوارب، ليس لها صور منعكسة.. وكأن فضة الماء كانت تتمرد على أي نوع من المخالطة، بانتظار خليط الدم الذي يفور بأعصاب البنادق.

كان هناك سكون يشي بلحظة اقتراب الإلّه أن يوقع توقيع الخذلان على صفحة مياه الهور العراقي المقدس الذي وصفته التوراة بجنة عدن.

كان السكون أقرب إلى محاولة خنق بلعوم الكون.. لم يكن هناك نقيق للضفادع، وإنما كانت بقع خضراء كالحة السواد، طافحة فوق الماء، مصطفة اصطفاف تحية الحداد.

لم يكن البعوض مزعجاً في تلك الليلة، ولا قارصاً كنهش الكلاب، مثل عادته الجارية، وكأن البعوض أبى إلا إن يترك كمية الدماء فينا كما هي، من أجل أن لا يتّهمه الانسان بمشاركته امتصاص دم الأهوار القاني الوفاء.

حتى القوارب.. حتى القوارب لم تكن تمخر الماء، بل كانت جنازات تحنو عليها كفوف الماء المشيعة.. لم تكن تلك معركة.. كانت وعداً.

بدا القصب والبق والضفادع وأعشاش الطيور الخبيئة، والسمك والبط والرفش، المخلوق الذي لا وجود له إلّا في العراق، وحيات الماء والقمر الفاقد لصورته المنعكسة على مرآة المياه، وحتى البنادق وصواريخ القاذفات، جميعها.. جميعها ليست أشياء خارجية منعزلة، وإنما جزء لا يتجزأ من عالمنا الداخلي، هذه الأشياء لا تقع خارجنا ومحايدة لنا، وإنما هي تجليات الوعي والاحساس وبقية الضمير فينا.

في تلك الليلة بدا لي أنَّ الخيانة لا مكان لها في هذا العالم، وأنها بنفس الوقت: سيدة الكون بلا منافس، فحتى عملية الخلق هي لحظة خيانة ترك فيها الإلّه وحدته المقدسة والتفت إلى ما دونها بهاءً وجمالاً ونقاوة.

كان أبناء الجنوب اللاهثة قلوبهم بعشق الحسين بن علي قربان الحضارة العربية والاسلامية، والمختلطة عقولهم بحب أبدي لأرضهم ووطنهم كوصية متوارثة من إمامهم أبي التراب

علي بن أبي طالب، تحمل أجسادهم رائحة عناد جلجامش وبراءة انكيدو، ومروءة العباس الذي قاتل بكفين مقطوعتين وهو يحاول الدفاع عن المياه وسدّ عطش الطفولة والبراءة والانسان في التراجيديا الكربلائية الخالدة.

لقد كانت مشاحيف أبناء الجنوب تنزلق بسيولة وسرعة بلا أدنى صوت، ولا أي خدش بخدود الماء الناعمة الطرية.

بدا الماء وكأنه زيت لمصباح القمر، وبدت أكوام القصب بمثل تجمعات الأمهات يودعن أبناءهن.

لقد كان القصب في تلك الليلة يودعنا بزعل وحنان مضاعف.. حتى الهواء القليل، بدا وكأنه محاولة في الانشاد.

لا.. لم تكن ليلة واحدة.. كانت لحظة خلق كاملة.

في تلك الليلة بدا الهور محطة مائية للتمرّد.. والبنادق بدت ورشات للتأمل واعادة ترتيب منطقية العقل.

لم تكن مجرد محاولة فتح مجرى الماء وإعادة دفق الحياة للأهوار، وكسر طوق حكومة حزب البعث وصدام حسين، وإنما كانت غوصاً في مملكة المستحيل الغارقة.

كان هادي سيد جبر، يتأكد من عدد المخازن التي يمتلكها ومن عدد أصابع الديناميت ورمانات التفجير، كان يقلّبها بوجه محايد وكأنه يرتب أثاث أشيائه المنزلية.

في تلك اللحظة فقط، شعرتُ أنَّ البارود هو نوع من أنواع الكتب.

وحده من كرّر الجرح جلوسه في محطات أجنبية خالية، بجواز مزور أو وثيقة منتهية المدة، يدرك أنَّ للانتظار رائحة خاصة.

بل الانتظار كائن كامل الأعضاء، يشاركك المحطة ويضايقك في بعثرة صندوق الأمنيات والذكرى.

في تلك الليلة، كان الانتظار يمشي متخبطاً بين أوكار الطيور.

كانت أكوام القصب تحاول منعه.. كنا نسمع الانتظار يُطبش فوق مرآة الماء مثل لطم أم عراقية ثكلت بوأد جميع أفراد عائلتها في مقابر جماعية على يد أزلام حكومة صدام حسين وحزب البعث، مستعيناً بالقمر أن يسعفه في إيقاف شريط سينما النكبات في مدن الماء ويضمد طائر القلب الجريح.

بيد أنَّ لفيفاً من صغار الطيور والأسماك تشبثت بعباءة الانتظار، فلم يستطع أن يتجاوز نظرات عيونهم؛ كان صغار البط والأسماك يتوسلون بالانتظار أن يترك جنود المعارضة العراقية الحقة في الأهوار، أنّ يرخي حبل الزمن فيعبرون صوب أعشاش أرواحهم الأولى والأخيرة؛ كان صغار البط والسمك يتوسلون بالانتظار:

ـ «لماذا توقفهم، دعهم يُرجعون لنا بقية الماء.. لا أحد لنا غيرهم».

عندها شاهدتُ الانتظار يجثو على ركبتيه ويجهش ببكاء طويل.. بكاء يشبه بكاء الإمام المنتظر الموعود وهو يرى يد التخريب تطال منزله وضريح أبيه في سامراء في يوم 23/ 2/ 2006.

حينها قلت: أيكون الإمام الموعود في الميثولوجيا العراقية القديمة السالفة، والعقيدة الاسلامية التالية، هو الوعد نفسه، فنحن ننتظر الانتظار لا غير.. فأيّ معنى أن يلزم الانسان برِهان وجودي مفاده أن يكون دائم الترقب للمستحيل؟!

كان مجاهدو الأهوار بقواربهم أشبه بسدنة المعبد الأخير. البعض أخرج أكياس التّتن والتبغ، وأخذ يلفّ وريقات السجائر، ثم يلحسها ويبلّلها بلسانه ثم يشعلها وهو منحنٍ عليها كي لا ينتشر الضوء حيث يحتمل أن يكون هناك أفراد من جيش حكومة صدام حسين يتسللون بحثاً عن معرفة تحركاتنا.

فيما آخرون أخذوا يؤدّون صلاة الليل، وهي صلاة مستحبة غير واجبة يؤديها المسلمون، وهي تعد الأكثر ثواباً وصقلاً للروح عندهم.

كانوا يصلّون من جلوس مستذكرين أربعين صديقاً يستغفرون الله لهم، غالباً ما كان هؤلاء الأربعون هم أصدقاء

سبقونا إلى محراب الموت الأخير، دفاعاً عن الماء وأرض الوطن.

صلاة جميلة، وأيّ شيء أجمل من عبادة تذكّرك بالأصدقاء والناس، وتجعلك لا تنسى الآخرين حتى وأنت في طقس فردي في ممارسة دينية.

ترنيمة الصلاة الخافتة تلك، لن أنساها أبداً ما عشت.

بعض الذين لم يكونوا من المصلين، وكانوا من القسم الذي فيه حماده، هم المجموعة التي سوف تفارقنا عند انتهاء الماء ووصولنا إلى المناطق التي أصبحت جافة، فحكومة صدام حسين وحزب البعث، سرقوا حتى ماء الوطن فضلاً عن نفطه وأرواح شعبه.

أفراد المجموعة هؤلاء كانت مهمتهم أن يكونوا حلقة وصل تمدّنا بالذخيرة والطعام وجلب الماء، كما تمدّ قيادة المعارضة العراقية بالمعلومات كي تنشرها الصحف حيث أنَّ كل حزب سوف يدعي بأنّ العملية التي نفذت هي من إسهاماته، وبهذا كان معنا أناس كل شغلهم هو تسجيل ماذا سنفعل ونحن لا ندري إلى أيّ جهة وحزب ينتمون!

بعض هؤلاء سوف ألتقي به في مدينة سدني الاسترالية، بين مخمور لتوّه خرج من المرقص يشتم الله والنبي والأئمة والحياة. وبعضهم مبتلى بتبديد أمواله في «البوكر مشين» وآلة القمار المستبدة، فيما مجموعة أخرى منشغلة بمراودة بيوتات الدعارة.

وكل هؤلاء هم سحب مجدبة عابرة، إزاء تلك المجموعة التي سيكون عملها هو متابعة كل من يحاول استذكار بدايات قصة تجفيف الماء، ونهاية حكاية أولئك المقاتلين الذين اختلطوا مع المعدان فعلموهم أن يحملوا لقبهم باعتزاز، وأنّه عيب عليهم أن يبيعوا الماء بدراهم ترميها لهم حكومة حزب البعث وصدام حسين، أو يخونوا الماء بتحويل قواربهم أدوات للتهريب وتجارة المخدرات والأسلحة والمسروقات.

في مدينة سدني الاسترالية، أدركتُ حكمة أخرى:

إنّ صلاة الماء تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإنّها وحدها المقبولة قطعياً، أما صلاة اليابسة فهي فحشاء بحد ذاتها.

في تلك الليلة شعرتُ أنّ الماء أخذ يتنفس نفساً عميقاً، وكأنه كان يستعد لما سيحدثه الرصاص والغدر من تلوث.

كانت الزوارق متقاربة وكأنها كائنات حية تتعانق عناق اللقاء الأخير.

كنا في الهور دائمي التنقّل، مع ذلك لم نكن نشعر بالغربة أبداً، في أوروبا وكندا وأميركا واستراليا، ستعلمك تلك المنازل الحجرية الثابتة (لا أقل لمدة سنة) معنى الغربة. أليس غريباً أن يكتنف الثبات بالغربة والتغيير بالاطمئنان؟!

كان شنغاب، أكبر رجالات الماء فينا، يردد أسطورة المعدان من أنَّ القمر ينزل كل ليلة ويتحول إلى شخص يغني

البوذية مع الأحراش والطيور والقصب، ويتفقد الناس العائمين فوق المياه.

شنغاب، الرجل الكهل الذي فقد جميع عائلته، ليس أولاده وحتى زوجته العجوز، وإنما حتى بقية أقربائه وأصدقائه البعيدين أيضاً، حيث جميعهم أصرّوا على البقاء في الأهوار والدفاع عنها. قاتلت النساء قبل الرجال، والأطفال قبل الشباب، بل:

«قاتل حتى الجاموس.. الجاموس كان صلباً وهو يحرن مثل الحمار».

هكذا كان يصف شنغاب الأمر حتى بعد سنين طويلة.

نعم قاتلت الحيوانات عن مائها وطينها وأعشاشها، فحتى الجاموس كان أكثر وفاءً من الانسان، لذا ساهم كثيرون بعد سقوط صدام حسين، في إدخال الارهابيين وإيوائهم ومساعدتهم في تخريب العراق من أجل حقد طائفي أو طمع مادي.

رغم فداحة الرزية على كاهل هذا العجوز شنغاب، إلا أنّه لا أحد سمع منه ذكر أولاده أو بناته أو زوجته أو ممتلكاته، حيث تمّت إبادتهم بالكامل في قصف الهاونات والدبابات التابعة لجيش صدام حسين الوحشي.

لم يخرج أحد حيّ من أهالي شنغاب، حتى أنَّ أحد

أولاده الذي وُجد يلفض أنفاسه الأخيرة، أخذ قدمه المبتورة وقذفها بوجه آمر سرية الدبابات، فطرزت البنادق وشم شهادة ابن الماء وعاشق الطين.

شنغاب كان في تلك الليلة هادئاً في مشحوفه، وشريط الرصاص يلف بدنه كله، وهو يخرج لسانه ويلصق وريقات السجائر، يتأمل اللفيفة الصغيرة، وكأنها إصبع طفل صغير، ثم يضعها في فمه وكأنه يقبّلها ويبارك لها ضياء الاشتعال.

كانوا رجالاً يصبر الانتظار ويأنّ لصبرهم؛ كان الانتظار يتصفّح التاريخ والمجد على قسمات وجوههم الطينية السمراء الملوّحة بأشعة الشمس العراقية الأسطورية.

كان الانتظار يتصفح في هذه الوجود المفتوحة كالكتب، معنى أن يعيش الانسان إنسانيته مكتنزة بكل تلك الثقة العجيبة.

كانوا يتصرفون وكأنهم في ليلة سمر عادية، وليس ليلة تسلل الى أخطر وأكبر سدة ترابية كونكريتية صنعها جيش صدام حسين وعصابة حزب البعث القذرة، الذين كل همهم كان قتل الانسان واعتقال الماء وحبسه؛ أليس الماء رمز الحياة والطهارة، فأي قذارة يحملها هؤلاء الذين يعادونه؟!

كان جنود الماء، هادئين، هدوء القذيفة في مدفع الهاون.. كانوا رجالاً لا يعبأون بالموت.. كانوا أكبر من

الموت بكثير، لذا سيبقون أحياءً في ضمائر الأجيال القادمة والطين العراقي الجديد، إلى الأبد.. إلى الأبد.. إلى الأبد ما عاشت الشمس.

هؤلاء كانوا بالفعل: رجال تحرير المياه وفك أسر ضحكة الأطفال وفرحة الانسان.

8

أنّ تكون لوحدك في المحطة أو المطار، فإنَّ هذا يعني أنَّ المحطة ليست بناية طابوق وحديد صامت منعزل محايد، وإنما هي ثكنة تعبئة العواطف الشريدة.

«المحطة علامة فقد.. وشم انتظار وتجني».

هكذا قلتُ لنفسي، بعدما أعلموني، بأنّي وإن حصلتُ على وثيقة سفر استرالية، إلا أنها سوف تبقى وثيقة لا ترقى إلى منصب جواز سفر. لذا فإن لن يسمحوا لي أن أبات في الفندق المخصص للركاب في البحرين أو الإمارات أو أيّ دولة أخرى تكون معبر استراحة للطائرة التي تقلني؛ وإنما سوف أنام كما العادة، في داخل المطار وممنوع عليّ مغادرته وكأنَّ على الكراسي والمصاطب أن تحتضن حسرتي ودموعي كل مرة.

كنتُ أحاول الاقتراب من تلك المشاعر وأحاسيس البهجة لكلب مربوط بيد سائحة اسرائيلية في عمان ـ الأردن، أو

كلب تمسح عنه يد السائحة الشقراء، عناء السفر في مطار الكويت والامارات أو قطر:

«ليتني كنتُ كلباً أجنبياً ولم أكن مواطناً عربياً.. عراقياً على الخصوص.

لا يوجد بغل في هذا العالم يتحمل مليون طن عذاب وقهر فوق ظهره طوال هذه المدة.

حتى سيزيفز ما استطاع حمل صخرته مرات عدة إلا لكونه على الأقل، لم يكن عراقياً».

قبل وصولي إلى استراليا، كنتُ أحسب أنَّ قسمات وجوه الحيوانات، غامضة بعكس تضاريس الوجه البشري، الذي هو دفتر قسري الوضوح.

الآن في محطة قطار براماتا، تعلمتُ أنَّ وجوه الحيوانات تحمل أسراراً يستطيع الوجه الآدمي حمل تفسيرها.

ليس هذا من باب النكاية بهذا المخلوق الذي يخال نفسه الوحيد بأنه ناطق عاقل، وإنما هو من باب كون الحيوان مخلوقاً لا يستطيع ممارسة فضح كل ما نحاول تصعيد رمزيته كمبدأ بشري ومراس احتكاري بامتياز.

إنَّ وضع الحيوان في عملية التفسير تشبه عملية وضعه في معمل تجريب الأدوية قبل أن نستخدمها نحن... هذا يعني بالضرورة وجود «مقارنة»، والمقارنة تشي لوحدها بأكذوبة كوننا المخلوق المعرفي الأعلى، فضلاً عن بقية تتمة أفكارنا

المجنونة حول حاكمية العقل البشري على الكون، وكونه ذلك السراج الذي يكتشف ويفسر كل شيء ويفهم كل ما يحلو له.

محطة القطار الخالية، أو المطار الذي لا تحمل سوى جوازك المزوّر فيه، لصد عواصف شعور الخيبة والتذمر والنبذ.. في هذه المحطة تتعلم أنّ العلم لا يأتي من النور دائماً، وإنما قد يكون العلم فأراً قابعاً هناك في الظلام يرتجف رعباً من قط مستفزّ الأنياب كمخلوقٍ بوهيمي بشع اسمه: الحياة.

حينما تكون وحيداً في المحطة أو حبيس هواجس الجواز المزور، ستكون عندها مدركاً تلك المقولة الفيزيائية التي تقول إنّ الألوان محض سراب فقط، تماماً كما يقول العرفاء والمتصوفّة عن الوجود بكونه محض وهم انساني.. المحطة الفارغة وجمرة الجواز المزور التي يتصاعد وميض سعيرها في قلبك، تعلمك بأنَّ الوجود والواقع: وهم انساني رفيع!

في المحطة الباردة الخالية أو في تلك المطارات التي لا ينتظرك فيها أحد، حيث ستكتشف أنَّ لكل شيء رائحة، وأنَّ رائحتك على الخصوص هي الغربة والاختلاف، وحيئنذ ستحاول أن تبحث عن نفسك، وستدرك فداحة كون هذا البدن الذي يحملك، ليس سوى حقيبة سفر خائبة، بل ـ وعكس ما كانت تعنيه كاتبة بورجوازية عربية: خائنة.

في تلك المطارات، في تلك المحطة الخالية، ستحاول قراءة نفسك بعتمة الخيال، تماماً كمن ينظر في فوهة البندقية.

. . فالمنتحر لا يفرّ من نفسه، وإنما يحاول قراءة ذاته من خلال لغة الموت.

. . . . . .

لم أدرِ ماذا حدث بالضبط، القلم هنا حبل قصير لا يصل إلى ماء بئر الذاكرة المعطلة.

كنتُ أشعر أنَّ قدمي اليسرى مبتورة، كانت حرارتها تشع مثل سيف يحمرّ بين نار مطرقة الحداد.

شعرتُ أنَّ قدمي حارة جداً وحادة حتى وكأن قدمي لو مست حجراً صلداً لقطعته.

لم أعد أدرك أي شيء، بعدها أدركتُ بأني بتُ خارج المعركة. . أخذت الهستيريا تصيح أن يعودوا بي إلى ساحة القتال لنصرة هادي سيد جبر، أو انتحر.

لكنهم. . لكنهم لم يعودوا بي إلى ميدان القتال وأنا بدوري لم أنتحر.

بعد أقل من سنتين سوف تشفى قدمي تماماً من تلك الشظية لتخلف وشماً دائماً في عظم الروح ولحمة البدن.

الوشم سوف يبهت تدريجياً بيد أنّ القلب سوف يبقى طائراً جريحاً يرفرف نزيفه ولا يرضى أن يستريح على أغصان النسيان.

توادع الرجال مع مجموعة الاتصال والامدادات التي فيها حماده.. تعانقنا مثل تحاضن القصب في العاصفة أو مثل اشتباك أغصان شجرة واحدة.

حماده لم يرضَ أن يعانقني أو حتى أن يقول: تحفظكم السلامة.

أخفى وجهه وقال: سوف أشتاق إليكم.

قرأ كل منا سورة الفاتحة على نفسه وعلى من مضى منا في طريق المعارضة العراقية ومقاومة حزب البعث وحكومة صدام حسين.. انزلقت القوارب حتى نهاية الهور الإيراني، ثم انحدرنا صوب الأرض العراقية.

كان الهور مثل خوذة جندي قتيل.. فارغاً تماماً.

كان واضحاً أنّ هادي سيد جبر، يرتجف من الغضب، بينما فضحت هزت الأكتاف شنغاب العجوز، بأنه ينتحب على هذه الأرض التي لم ترها الشمس منذ بدء الخليقة.

كان علينا أن نتحاشى عروق القصب، فهي قوية الجرح دامية عميقة النزف وكأنها تصيب القلب قبل القدم.

في كل مرة نذهب فيها لأداء واجب تحرير المياه، كنا نسمع فيها همهمات جند معسكر صدام حسين وأحاديثهم، ونشم طفح جثث تلك الأحاديث البذيئة بينهم، وكل ما كان يعطيهم النظام البعثي من ثقافة عسكرية.

هذه المرة كان الصمت سيد المكان، حتى الزمن، بدا

وكأنه حجر أصمّ، بما في ذلك الهواء الذي كان يتنفسنا أكثر من كوننا نستنشقه، المجاديف التي كانت بأيدينا وعاشرتنا كأخ لبنادقنا بالرضاعة، تبدت الليلة وكأنها مجسدات طلسم ولغز.

كانت صيحة شنغاب أعلى من صوت أي تفجير لتفخيخ غادر سوف يتعرّف عليه أهل العراق بعد سقوط صدام حسين.. كان صوت شنغاب يجمع بصيحته وجع الأب والأم والأخ والابن العراقي الذي يصبح ويمسي بغياب عزيز وحبيب، بعبوة تفجير آثمة تقتل الأطفال وتخرب المعابد والكنائس والمساجد ومدارس الأطفال، وماذا يفعل الجبان سوى الغدر؟!

كان بلعوم شنغاب بركاناً تفجر بوجه غدر الصخور وصمت الطبيعة وتكرارية الخديعة:

«كمين.. ارجعوا.. ارجعوا..».

لم يكن صوتاً، كان دوي حجر بحجم المجرة تهاوى كي يتكور ويستقر فيكون نقطة الخاتمة.

وكان هادي سيد جبر، ضميراً أسرع من الضوء لتلبية روح الطين ففتح أضلاعه للرصاص كي تطرز على صدره وشم اسمه: حرية العراق والتمرد الأبدي للجنوب.

إنَّ ما حال بيننا وبين هادي سيد جبر، وهو المتقدم علينا دائماً بخطوات ليست الشجاعة وإنما عمق الإيمان.. لقد

حالت بيننا وبينه قذائف دبابات وهاونات وقذائف ورصاص أغزر من أنشودة المطر.

فانقلب الليل إلى شمس حمراء لامعة بين وهج الرصاص وقذائف التنوير.. ذلك التنوير وحده الذي يعطي معنى الخيبة والظلمة الدامسة.

بات كل منا يزمجر داخل الفخ.. تبعثرنا، وكانت بقية القصب ومجاري الماء وأخاديده، عباءة أمٍ حانية سترت طيور الماء المغدورة.

اختفى الأفق... باتت هناك الأرض فقط.. الأرض اختفت فلا تظهر إلا حينما نحطّ قدماً ونرفع الأخرى.. تقلصت الأرض فلم يتبقَّ منها سوى محط قدم واحدة.. لم يتبقَّ من الأرض سوى مقدار محط قذيفة.

أدركتُ حينها أنّه ليس هناك مقدار سوى حجم قدرة التواري أو التصادم (لا فرق).

وأنَّ اللغة بحجم الصمت تماماً.. وأنَّ شهوة الحياة لا تطفئها سوى شفتي الجرح الرقيقتين.

في تلك الليلة زفّ القمر هادي سيد جبر، عريساً للقذائف، وكان هادي سيد جبر يهرول صوب شفة المدفع مثل أم عراقية شاهدت ابناً لها ينهض من مقبرة جماعية أجاد صدام حسين وعصابته القذرة حفرها بعمق وسعة.. كان هادي سيد جبر يهرول ودمه ينساب منافساً مطر الرصاص..

كان يهرول صوب الموت، والبنادق خيطت بدنه بالرصاص بمقدار ثوب كامل.. كان هادي سيد جبر يهرول بعناد وكان المدفع بهوتاً فزعاً صارخاً بوجه طين الجنوب العراقي:

من أين لهذا الطين كل هذا العناد.. من أين للألم كل هذه المعرفة؟!

. . . . . .

. . . . . .

مرة سألت محطة قطار براماتا: هل أنتِ تتألمين لكونك نوعاً من أنواع الذاكرة؟!

فسمعت نحيباً يشبه بندقية فارس قديم، كان يدافع بها عن الوطن، فإذا بها تتحول إلى أداة إرهاب وسرقة بيد قطاع الطرق وبرابرة الزمن الجديد:

«ليس المؤلم أن تكون نوعاً من الذاكرة، لكن الجارح أن تكون الذاكرة هي فاعليتك الوحيدة، أو تكون الذاكرة هي المكون الحقيقي لما نسميه: الهوية.

فهذا يعني أن عليك أنّ تحمل جرحاً دائم النزف، إذ الضماد سيكون عندها ضرباً من الانتحار».

لقد ندمت بعدها كثيراً على خوض مغامرة السجال مع محطة قطار، فنحن البشر لا نستطيع إلا نسيان بعض حقائب الألم في المحطات.

نستودعها في المحطة أو المطار ثم نمارس النسيان كمأساة وتراجيديا أو نوع من الكوميديا المصاهرة للطيش والجنون والتظاهر بالبرود

لم أكن أتظاهر بالبرد، وإنما كان البرد منشغلاً بحشد تظاهرات داخل جسدي.

شعرتُ أنَّ الانسان لم يتم خلقه من الطين، وإنما من الثلج.

شنغاب كان يواصل السهر والعناية بجرحي ليل نهار، وهو الذي نضح صدره بالكثير من الدم.

كان من تبقى منا يقول له أن يلتفت لنفسه أو يدعهم يعالجونه، فهو رجل كبير لا يحتمل جرحاً كهذا في صدره، فضلاً أن يهجره ويعتني بشخص آخر. لكنه قال لهم إنّه سوف يتولى الاعتناء بي وإعادتي إلى إيران، وإنَّ ما يشاهدونه من دم في صدره ليس سوى دمي أنا الذي علق به لكونه قد حملني مسافة طويلة وقدمي تشخب بميزاب الشظية والهستيريا التي أصابتني إثر تركنا هادي سيد جبر هناك.

كان جرح شنغاب أكبر من جرحي، وإصابته ليست بسيطة، بيد أنّ جرحي كان أعمق بكثير، لذا كان شنغاب يعلم أنّه هو وحده لا غير، القادر على صدي كي لا ألتحق بعيون الماء التي عادت اليها الحياة بفعل حفر بدن هادي سيد جبر.

في الصباح كانت الشمس حمراء والقصب أحمر والطين أحمر.

تذكرت حكاية دينية تقول إنه لما قُتل الإمام الحسين بن علي، لم يرفع أحد حجراً إلا وكان تحته دم عبيط.

إنه نوع من تمرد الأرض.. نوع من نطق الجماد.

حتى الهواء.. حتى الهواء كان أحمر، فكأن الشفافية وإمكانية الرؤية هي في ذلك اللون الغامق فقط.

كان بقية الماء مالحاً جداً، والجو رطباً والسماء بدت مثل قميص مبلل.

كان شنغاب يلفظ أنفاسه بصمت.. وحدها الريح كانت تولول:

لقد تم تجفيف الأهوار نهائياً.. لقد قتلوا هادي سيد جبر.

.....

9

كان القلب يتكوّر على جراحه الباذخة، وكانت محطة قطار براماتا، معبأة بالغيب، فكأن ثلاثة أرباع العالم محشورون فيها ودويهم يفجّر الأذن، رغم خلو المكان:

من أين للحيرة كل هذا الزحام؟!

لقد كنتُ محتاراً كيف الخلاص من إيران والنجاة من هذا القبو الديني المقرف، حيث يشكو الجميع من التشوّه والتفسخ.

هنا في إيران.. في معسكرات اللجوء المتهالكة في الأهواز وأراك وشوارع قم الضيقة، كانت حتى الطفولة تتفسخ وتبعث رائحة اليأس الكريهة، مثل فاكهة تدحرجت إلى أزقة الطريق العفنة بالنسيان.

حماده قال إنه وجد الحل، وإننا نملك بطة تبيض ذهباً، إنها القوادة صفية، فراشة مدرسة البنات وصديقتها العجوز.

مرة عرضت عليه أن يلبس عمامة فيخبئ فيها مقداراً من

المخدرات، ويكون حلقة وصل بين مدينة مشهد الحدودية وبين طهران وأصفهان:

«العمامة وسيلة ناجحة لحمل كل ما هو ضار.. إسأل الخميني كيف كان يخبّئ أصدقاءه وتلامذته، وكلامه أيام الثورة».

كانت صفية تحسب حديثها محض كلمات مضحكة ومسلية، لكنها كانت، وقتها، شديدة الوجع على حماده سياه.

لم تكن ردة فعل دينية أو تربية معينة، وإنما توجع حماده لكونه ماطل الجبن كثيراً في تحقيق هذه الفكرة، فانساق معنا نحن الذين نصرّ على قطع المسافات الطويلة للوحشة، حفاة الضمير متعففين عن ارتداء نعل السلطة وأحذية الخداع.. الطين يعلمك أن تحذر، أن تلبس قدمك قناعاً فكيف بوجهك؟!!

لقد تحول المجاهد حماده إلى بائع مخدرات، ولمَ لا فالمعارضة العراقية بأجمعها كانت تتاجر بالمخدرات، لذا لم يعد سوى الدبابة الأميركية حلاً عله ينتج اليقظة، حيث أنَّ بعض الجنون أهون من بعضه الآخر.

كم أحمق أنا فعلاً: فالتحرير بدبابة أميركية فتح العراق مثل ساقي داعرة متمرسة على كافة أنواع التجارة المحرمة.

في سنة 2004 ـ 2005، غدت مدينة البصرة يتقاطر عليها

يومياً مئات الأطنان من الهيروين والحشيشة والترياك، باتت البصرة، تلك المملكة الإخوانية المتراحمة المنفتحة حتى قبل أن يكتب إخوان الصفا وخلان الرسا بيانهم الأخوي العقلاني، عبارة عن مدينة للتشنّج الديني والهيروييني معاً.. ضيق في الدين وسعة في المخدرات.

هكذا كانت البصرة في عهد المتدينين القادمين من إيران أو الماكثين في اسطبل حكومة حزب البعث حيث أعلفهم الحصار والقمع والتخلف والقسوة والتوحش فبات الانسان يقتل لكونه يحلق شَعر رأسه بطريقة معينة؛ هكذا تم سلخ الوطن إلى مخلوق مشوّه وفزع برعاية خراب المجتمع العراقي والاهمال السياسي للقوى العسكرية المتعددة الجنسية.

وكنتُ أسأل نفسي مرات عدة: أين ستنتهي الروح الانسانية أمام كل هذا الانفراج العشوائي في الاقتصاد والسياسة؟!

وكان القلم مثل طفل رضيع يحاصره قماط الحدة والاهمال: القوة تستطيع بناء المحطة من جديد لكن لن تستطيع بناء ثقافة، فضلاً عن تشييدها، إلّا اللهم أن تكون ثقافة هي جزء من تلك السلطة نفسها.

أخذتُ التفت.. لم تكن محطة قطار براماتا تحمل صورة لأحد، لا صورة لصدام حسين ولا مصطفى أتاتورك ولا

استرالي.

قلتُ لنفسي:

هل فعلاً محطة قطار براماتا خالية من السلطة؟!

الجنس مفتاح الهم، لكنه مع حماده سياه، كان مفتاح الدرب لمتاهة الحياة الجديدة.

كان عليه أن يرضي تلك العجوز الشمطاء، كان يفتح ساقيها المتهدلة منهما شحوم كريهة تشبه الهزيمة.

وكانت هي بدورها تفتح له الطريق للتعرف على «الجماعة».

جماعة تجارة المخدرات.

تلك الليلة أصر حماده سياه، أن يقذف منيه في مزبلة تلك العجوز الشمطاء مرتين.

بعدها صارحها بأنه يريد لقطاره أن يكون على تلك السكة الذهبية.

قالت له إنّ تلك السكة قطارها بلا محطة، وإنّ السير فيها سيكون حتى النفس الأخير، لمن يريد أن يكون كبيراً فعلاً.

أما من يريد أن يتكسّب بعض المال لغاية محدودة، فيحسن له أن لا يتعرف على الجماعة، عليه أن يكتفي بالوسطاء الصغار فقط.

قال لها حماده، إنّه يريد مالاً يمكنه من الوصول إلى استراليا ولا حاجة له بالتورط مع الناس الكبار.

ـ «أساعدك على شرط أن تصحبني معك إلى استراليا».

ـ لكنكِ إيرانية ولن يقبلوا منكِ أن تكون لاجئة.

«سأقول لهم إني زوجة رجل قتله نظام الخميني، لكونه ينتمي لمجاهدي خلق، وأنا امرأة كبيرة ومحرومة من أي حقوق».

ـ لكن.. (قالها حماده ووجهه أصبح قطعة معدنية قديمة من شدة الضجر).

ـ «أعرف ماذا تريد.. لن تتقيد بي، لك حرية اللعب مع البنات اللواتي سوف تتعرف عليهنّ في طريق الرحلة.. أنتَ كلب أجرب أسود، وأنا امرأة عجوز كلانا لن يجد سوى صاحبه ينام معه».

ثم أخذت العجوز تضحك بشماتة كاشفة خبايا فمها الكريه.

كاد حماده أن يفقد أعصابه؛ كلماتها كانت تنغرس في جميع الأعضاء الداخلية.. في القلب.. في الكبد.. في الكلية والمعدة والأمعاء..

لكن حماده سياه، تذكر فجأة الأهوار والليلة الأخيرة لتلك المعركة، تبسّم بتصنّع واضح أمام العجوز، ثم قال لها:

ـ اتفقنا.

ضحكت العجوز عالياً، وقالت له وهي تنظر صوب عينيه بقوة:

ـ الليلة أنتَ نشط تعال جرب ثالثة.

اقترب حماده منها، فجرّته من عنقه بقوة، أخذ حماده يرهز فوقها، هي تنظر إلى عينيه ظناً منها أنّه كان يبتسم لها.

بينما كان حماده سياه يبتسم لصور تأتيه من كوة المستقبل، حيث الشطآن الزرقاء، والفتيات الشقر اللواتي يقال إنهن يفضّلن البشرة السمراء في استراليا المليئة بالمال والشهوة.

كان ما يزعج حمادة فعلاً وهو في تلك الحالة، هو مزاحمة صور أخرى تطفو في صندوق الذاكرة والخيال.. كانت صوراً مختلفة تقف رابضة في وسط صندوق الجمجمة، وقفة طفل بريء أمام جلاد يضاجع جثث أمه وأخته.. كانت صوراً عنيدة تعب حماده من طردها ومحاولة عدم الالتفات اليها:

صور القصب والأهوار، وبقية الماء، وبقية الأبطال الذين كانوا آخر ما تبقى في كأس الضمير والنخوة والغيرة، على الأرض وطين الوطن.

هادي سيد جبر ولعبه الدائم ببندقيته.. شنغاب وصمته الضاج بالحكايات والتاريخ وأساطير الهور.

زوارق المعدن، وطيور الخضيري الملوّحة بالوداع الأخير،

وهيجانها وضجتها بأنَّ هناك ثمة خيانة لصديق وكمين لعدو.

كان حماده يرهز فوق بطن العجوز المكومة الشحم، وكان يبتسم مرة لصور خيالية في قارة استراليا البعيدة التي أخذت تزحف إليه وتقترب، ويقطّب أخرى لصور الأهوار التي أخذت تبتعد وتتلاشى مثل سفينة أشباح تتوارى في ضباب مدن مسحورة.

.. اختلط الكوكايين والحشيشة بالسلاح.. اختلطت ضحكات فتيات استراليات شقراوات مع تنهيدات العجوز تحته.

اختلطت أصوات الشهوة والأمنيات مع هياكل بنادق لم تفارقها أكفّ خشنة قاسية التذكّر والصبر.. اختلط كل شيء بشيء مثل اختلاط التحرير بالاحتلال.

أغمض حماده سياه عينيه وأخذت الصور الذهنية بعضها يلاحق بعضاً مثل زوارق متصلة.. مثل توابيت متواصلة.. مثل بنادق متعانقة متراصة الأيدي عليها.

أخذ جسد حماده يهدأ وتتباطأ حركته شيئاً فشيئاً، مثل هدوء الدبابات التي ضاعت ولولة قذائفها وسط زغاريد صيحات أشلاء المعدن وأبناء مدن الجنوب، المواجهة لها.

لم يستطع الكمين إصابة الذعر والفزع بروح المعدان وأبناء مدن الجنوب المقاتلين هنا من أجل الماء.

القذائف هي التي أصابها الذعر والخوف وارتجاف من

ذلك الوضوح والاصرار على المجابهة، فكأن الدبابات جاموس يطارده هادي سيد جبر بعصاه.

لم تكن هيئة هادي سيد جبر، هيئة الجندي المقاتل، وإنما كان أقرب ما يكون إلى طفل يسرح بقطيع الجاموس.. الجاموس الذي كان عبارة عن أرتال من الدبابات الغادرة.

لقد مارست الدبابات في تلك الليلة، جولة ثالثة ولم تتعب،

فالغدر لذة مضاعفة.

هكذا قال حماده سياه لنفسه وهو يلقي ببدنه المتعرّق، قرب جسد العجوز.

10

حينما تكون فاقداً لأيّ وثيقة رسمية وتجلس في محطة قطار غريبة وبعيدة، ستدرك أنّ المحطة تمتاز بكونها ماهية ثابتة، وأنّ كل ما سواها عبارة عن عالم متزلزل مرتج.

أما اللحظات التي تقضيها في المحطة فتكون عندها نوعاً من: الخلاص.

مصطبات المحطة كانت نوعاً من قطع الخشب المستطيلة كمساطر مصبوغة بالأزرق. كان كل مقعد يشبه رزمة بنادق مموهة.

لم أشاهد مصطبة جلوس في محطة إلا وتذكرتُ «البنادق»، وكأني أتذكر الرقم السري لشفرة إبادة الفرح.

شفرة أتاحت مساحة مضاعفة للحرمان، تماماً كما تقول قصيدة نهر من دخان:

«المقاتلون الذين
أهملوا

جثمان أخي هناك
حرصاً على ثمن البندقية.
يقتاتون على تسكّع الوجع
في المدينة،
يلفّون أوجاعها
سجائر
رخيصة الثمن.

كلما تذكروا أخي
ونسوا البندقية
يعثون على الأرض تمنيات.
عن مسلة أخرى
لحمورابي
يجعلون منها
منفضة جديدة
لذات تلكم السجائر.
.....
المقاتلون الذين
أهملوا
جثمان أخي
هناك،

كلما تذكروا البندقية
متناسين جثمان أخي
مدّوا سياط بطالتهم
جسوراً
تكنولوجية الصنع
لذات الحروب
القديمة
.....
كان أخي
يُكثر من البصاق
يتعاطى الشِّعر والفلسفة
... يدمن الحزن والسجائر،
لما أسعرت الحرب
جمرة البندقية
خبت الفلسفة
واختفى الشِعر
وطار أخي
مع الدخان

لماذا في السجن
تمنع السجائر

ويباح كل شيء
وفي الحرب
تغدو النساء
بثمن السجائر؟!

كلما هاجت بي
الفلسفة
تناسيتُ البندقية
أتطلع إلى السماء
.. ألوّح بسجائري
لأخي:
هل سيصنع الله لنا
غداً
نهراً من دخان
خالياً من نيران
البندقية؟!

لا أزال أذكر ديوان «قربان على مذبح آخر الآلهة»، كان مذبحة نزفت فيها الحروف كل ما في أوعيتها من دم ودموع.. أي كارثة هذه بأن تكون الحرب ذاكرتك ومسلتك يا حمورابي؟!

في منطقة «الصينية» في منطقة «بيجي» حيث حقول الحنطة

الذهبية، كان الناس يهرعون إلى بنادقهم ما أنْ يهطل المطر، وكأنهم يردّون على تحية السماء بمثلها.. مطر رصاص مقابل رصاص المطر.

في مدينة البصرة العراقية كانت هلاهل البندقية، أحد أدوات التشجيع في مباريات كرة القدم.. فظهور البنادق دليل على «البهجة»، تماماً كظهور الفتيات نصف عاريات كعارضات ومشجعات في الدول الأخرى.

في الأهوار كانت البنادق دليل بلعوم إضافي يعين النساء على إطلاق زغاريد إضافية عند ولادة امرأة أو ولادة جاموسة أو رجوع مسافر طالت غيبته.

حتى في معارك الأهوار دفاعاً عن الماء، لم يكن صوت البندقية كريهاً، وكأننا نستقبل ذلك الهدير الطنان، بحواس إضافية زوّدتنا بها طبيعة تلك الأيام الموجعة.

تلك الأيام رحلت وجاءت سنوات الهروب في حلقات مفرغة من الصبر تسمى اللجوء الى الحدود.. حدود دول أجنبية بعيدة لم نكن نحسن تلفظ اسمها حتى.. كنا نلفظها خطئاً مثل خطأ أطفال يتلفظون بطلب الخبزة والحليب لأول مرة.

هنا في أرض الحدود كان صوت البندقية عبارة عن ساعة تلعن القيامة الشخصية لكل واحد منّا.. صوت البندقية كان غراباً ينعق في الروح الخيبة، وكأن شرطة الحدود أو خفر

السواحل، قد أمسكت بنا.. هنا لم يكن صوت البندقية تحدياً مع الموت كما في الأهوار.. وإنما كان يعلن موت روح التحدي فينا الى الأبد.. لقد خسرنا أنفسنا وضيّعنا الوطن.. الوطن الذي هو الآخر، سوف يبقى يشكو من دوار البحر وفقدان الذاكرة وأشباح أجنبية وعربية تهجم عليه ككابوس مجسّدة له غرق تيتانك الفقراء ببحر الحسرة والدموع.

بعد سنوات في سدني استراليا، كنتُ أحدّق ببنادق معروضة للتمرين القانوني.. فأطلت النظر اليها.. أطلت النظر كثيراً، وكأني كنتُ أنتظر من البنادق أن تتذكرني، كما لو أني كنتُ أعاتب صديقاً قديماً افترقت عنه وإذا بي أصادفه فجأة لكنه يمضي لسبيله ولا يعرفني.

سألتني عشيقتي الاسترالية:

ـ «ماذا تعني البنادق بالنسبة لمقاتل قديم؟!».

أجبتها وعيني لم تفارق النظر إلى البنادق:

ـ المقاتل القديم يعتبر كل بندقية عبارة عن جثة محنطة لصديق أو لعدو أو صورة مستقبلية لحلم ميت لا يزال يزاحم الأحياء.

الخارج من معركة شرف الماء لا يستطيع أن يقبل بأن يكون السلاح نوعاً من الموضة أو الهواية.

عندها تذكرت أنَّ السلاح كان نوعاً متشابهاً في معارك

الأهوار ما بين جيش حكومة صدام حسين، وفرسان الدفاع عن طين الهور. لم يرضَ أحد أن يستخدم سلاحاً إيرانياً أبداً. وحده الملبس كان مختلفاً: جيش صدام حسين كان يرتدي البنطلونات الرمادية، أما أصدقاء المعدان فكانوا يرتدون الدهاديش البيضاء والغتر العراقية القديمة المرقّطة بالأسود، والتي لا يرتديها سوى أهل العراق والفلسطينيون وبعض السوريين.

«أي علاقة بين القدس والأهوار؟!».

سؤال لا أزال أشعر أنني أصغر منه بكثير، وأحتاج للاجابة عليه إلى عمر آخر.. إلى هور مختلف!

في سدني استراليا، بينما كنتُ أراسل مجموعة دور نشر عراقية، من أجل مساعدتي في نشر مشروع جديد للثقافة العراقية بهدف اجتثاث حزب البعث فكرياً وثقافياً وسياسياً، قرأت يوم 25 ـ 10 ـ 2005، أنَّ مصممة أزياء اسرائيلية تدعى «غاليت ليفي» أنجزت عقداً مع تجار سعوديين بمبلغ 250 ألف دولار أميركي، قالت هذه المصممة للاذاعة الاسرائيلية الثانية:

إنَّ السعوديين لم يزعجهم إبقاء علامة تقول «صنع في اسرائيل».

عندها تذكرت كتاب «اغتيال القدس» فقلتُ لنفسي:

مرة أخرى المصمم اسرائيلي والمنفذ عربي سعودي.

ارتفع منسوب السؤال في بحيرة الروح:

ما علاقة القدس بالأهوار؟!.

ومرة أخرى أجد نفسي أصغر من هذا السؤال.

أخذتُ أتلفتُ في محطة قطار براماتا، تذكرتُ أنه في الأمس كانت تقف هنا امرأة عراقية متلفعة بعباءتها.

كانت هذه المرأة تمثل مشهداً مثيراً، بدت المرأة بين شقراوات استراليا نصف العاريات، وكأنها كنيسة تقف بهدوء الفضيلة بين روضات أطفال الشهوة وأسواق الخيال.

كانت المرأة خمسينية العمر، عزَّ عليها أن تخلع عباءتها العراقية السوداء؛ وجدت أنَّ ذلك أقرب إلى حرق العلم الوطني واستبداله بحفنة حروف في مقال تهريج سياسي.

كنتُ أرمق المرأة مستذكراً أمي، هي كانت تنظر الي بعيون تفيض حناناً. بالتأكيد عرفت هي أني مثلها عراقي، أو ربما تذكرت ابناً لها بمثل عمري.

وجهي الكالح السمرة وعباءتها الداكنة سواد المعنى، لافتة لا يمكن تزوير إفصاحها عن الهوية العراقية.. أو هوية الغرباء والمعدمين والتائهين في الشتات من أبناء هذا القمقم الرهيب المسمى بـ العراق.

مع ذلك كان هنالك فرق شاسع ما بيني وبين تلك المرأة المصرّة على لبس العباءة وسط مدينة سدني الاسترالية. كانت المرأة على يقين من وصول القطار الذي تريده، والقطار أيضاً

بدوره لم يتباطأ ولم يخيّب ظنها. وكأنه كان هو من ينتظر سيدة الطين العراقية هذه، فلم يطق صبراً على الارتماء في أحضان عباءة أقدم ميثولوجيا بشرية.

شعرتُ أن القطار كان ملهوفاً، وأنَّ صوته كان أقرب إلى صراخ طفل تذكّر أمه على حين غرة.

سقطت بطاقة الفيزا والإقامة المؤقتة من يدي، رفعتُ رأسي فإذا بالمحطة فارغة من أيَّ شخص آخر...

لا قطار ولا عباءة ولا امرأة.. وحدها كانت الريح تدور باكية في محطة قطار براماتا.. ريح وحيدة تجهش بسؤال انكيدو القديم:

«لمَ لا مكان لي.. لمن أنا أنتمي؟!».

.. في ذلك الوكر البائس، الواقع بعد فلكة تسمى «فلكة قدس»، حيث على اليسار حسينية وحوزة حزب الدعوة الاسلامية المسمى بـ «أهل البيت»، وعند نهاية الشارع، عند الاستمرار في ذات الجادة، على اليسار توجد مكتبة أدبية. بينما لو استمريت في المشي قليلاً في ذات الشارع المتصل بشارع «انقلاب»، أي الثورة باللغة الفارسية، فإنك ستجد نفسك في أحد أكبر مقبرة لقتلى الحرب العراقية الإيرانية.

في ذلك الوكر اللئيم وبعد أن خرج حمادة سياه من سكرة إرضاء تلك العجوز، وحصوله على دعمها ومساعدتها في العمل مع تجار المخدرات والحشيشة، أخذ حماده ورقة من

كتاب يدرّس في الحوزة اسمه «الحلقة الثالثة ـ دروس في علم الأصول ـ تأليف محمد باقر الصدر»، وأشعل بها حمادة سيجارته.

كان يريدها حركة درامية ودلالة تفيض معنى تغيير مسار التاريخ لديه:

«بداية المخدرات كانت بإحراق الكتب».

ـ لا تكن مبدئياً إلى هذه الدرجة، بعد انتهاء المعركة تعوّدنا إحصاء عدد الجنازات التي ندخلها إلى إيران كي يتم دفنها في قبور لن يزورها أحد.. كل مبدأ نهايته النسيان.. صدّقني حتى لو سقط صدام حسين فإنَّ معركة تكديس الأموال والجشع العراقي المتوجع بالحصار الاقتصادي، كفيل بإبادة أيّ غرس جديد لدولة الحرية، الجميع عندها سينسى العذاب السابق ويتحول إلى سفاح بدوره..

يا صاحب الهور القديم: «الخلود للمصلحة فقط».

ـ فلسفة المصلحة طريق صواب سلخ الضمير واحتراف الجريمة.

ـ «فليكن ما دامت الجريمة ونقيضها متساويين».

ـ التساوي أحكام فردية على الأشياء.. الأشياء لا تخضع للمصلحات، ثم ألم تحرق الكتب، فلماذا كل هذا الاتكال علإ مصطلحاتها؟!

لم ينفعل حمادة سياه، ظل جامداً في مكانه، لم تكن هذه عادته. كان نزق الحديث بشكل مستمر.

ابتسم ثم ارتدى بنطلونه وقميصاً آخر، وأخذ يبحث عن فردة حذائه الثانية، وعندما وجدها أخذ يمشي صوب الباب وهو يحمل فردة الحذاء من دون أن ينتعلها.. التفتَ الى الوراء ثم قال:

ـ من اليوم سوف أبدّل حذائي وحياتي، أعرف نوعاً جيداً من الأحذية الاسرائيلية تباع هنا في قم.

11

ها هو عام 2005 ينتهي وينتهي معه تاريخ بطاقة الإقامة المؤقتة. كان عليّ مراجعة دوائر الهجرة الاسترالية للنظر في أمري.

كأنني لم أكن أنا الذي يخطّط تضاريس الخطوة والمشي، بل كانت الخطوات تعيد فهرست وظائف الحواس عندي.

فقد شعرتُ أني فقدتُ حواسي كلها:

هل فقدان الحواس سجن.. عبودية أم حرية؟!.

تساوت لدي الأشياء وكأني بتُّ أقطن منطقة الحياد بين الوجود والعدم.

كنتُ أسأل نفسي باستمرار إلى أيّ دولة عليَّ أن أتوجه وهل عليَّ المجازفة باستخدام زوارق تهريب أو جواز سفر مزور إلى نيوزلندا أو كندا (لماذا إلى هاتين الدولتين بالذات؟!).

لستُ أدري تماماً.

كنتُ أتوجّه صوب قطار براماتا باحثاً عن نفسي.

من شدة الانتظار وتقليب الاحتمالات، تساوى لدي رفض إقامتي أو قبولها من لدن السلطات الاسترالية.

عرفت عندها ماذا يعني طول الأمل من خراب، تلك حكمة علي بن أبي طالب رمز المعدان وجنوب القلب، الأول.

سرت في الشوارع الأقرب، كانت الشوارع تعصف بهواجسي، حتى مقبض باب شقتي، لم يكن قطعة حديد، كان المقبض أقرب إلى كف صديق قديم يصافحني، ويتشبّث بي ساعة العزلة أو الوحشة أو النفس الأخير من الرمق.. كان المقبض كفّاً آدمية.. كف هادي سيد جبر بالذات.

قبل أن أسير في استقامة الشارع بظهر منحنٍ وذاكرة مثقلة، رنوت إلى صندوق البريد المثبت في مدخل البناية التي أقطنها... شعرتُ أنَّ فم الصندوق تعلم اللغة العربية لكثرة رسائل أصدقاء السراب لي.

جارنا الصيني الذي تعود أن يقف صامتاً محدقاً بهذا الفتى العربي العراقي العاشق لوردة الجوري، هذا الصيني تعود مني أن أحيي الأزهار قبل أن ألتفت إليه.. اتسعت فتحتا عينيه الضيقتان، حينما حييته ولم أستطع النظر الى وردة الجوري في حديقته، كانت الوردة تقف بيننا مثل حبيبة شفتاها وردة مهملة حيث الحبيب صريع الغياب.

وأنا أتجه صوب المحطة تعلقت شوكة من شجرة وردة

الجوري، بقميصي.. شعرتُ أنَّ الوردة تعاتبني، لم ألتفت، كانت طاقتي أقل من احتمال توديع وردة!

لم أنتبه أني سلكتُ طريقاً متعرجاً للمحطة، هذا قد يكون بسبب أنني تعودتُ سلوك هذا الدرب الأبعد، نظراً لأنه يجعلني أتوسّط بين بارك وحديقة عامة واسعة، وبين بناية تشبه مدرسة «كرستي كيل» وهي مدرسة غالبية بناتها من العرب والمسلمين، لذا اشتهرت بناتها بالجمال الأخّاذ والوقاحة المفرطة، فلا ينتهي العام الدراسي إلا والصحف الاسترالية تنشر فضيحة أو مصيبة عن طالبات هذه المدرسة خصوصاً من لدن الفتيات المرتديات للحجاب.

هذه تلوّح وتلك تصيح، وثالثة تجهد أن تكون ضحكتها هي الأعلى.. اختلط عليَّ أيّ الجانبين فيه العصافير وأيهما فيه البنات.

كالعادة كان هناك حمادة سياه، يقف بسيارته السبورت الرياضية الزرقاء، وبصلعته، يحملق في البنات. وكالعادة قلت له إنَّ هذه العصافير بعمر بناته، فيجيب مثل كل مرة، وهو يضحك كاتماً غضبه:

ـ «القلب أخضر يابن الزبير الكالح.. الحب بالقلب مو بالصلعة».

ـ لكن قلبك أصابه الصلع قبل رأسك!

ـ «تدري أيها المحارب القديم، أنك ابن ستين كلب، «تفو» عليك يا معيدي».

وقفتُ على إشارة المرور منتظراً الإشارة الخضراء.. لم يتغير الضوء.. خطفت سيارة حمادة سياه وصوت الأغاني الأجنبية التي تمزّق الأذن وإلى جانبه فتاة شقراء تشبه قطة ذهبية وهاجة.. ضمّها إليه وصرخ من زجاج باب السيارة:

ـ «راح تبقى فقيراً يا صديق الجواميس القديمة... هههه.. هههها».

قلتُ لنفسي ها هو حماده كعادته، رشى فتاة غرّة صغيرة ببصقة من الحشيشة أو الكوكايين أو السجائر (حسب ذوقها)، أو «الترياك» الذي بات يتسع التعامل به حيث نشط المُسفرون (= وهم من يقولون مرة إنهم عراقيون ومرة إنهم فرس أقحاح)، من التعريف بتراث أجدادهم العريق.

لم يعمل حماده في الطابوق.. لم يحمل الأخشاب والحديد ولم يدفع العربات الكثيرة للسوبر ماركت، أو الصناديق الثقيلة في المزارع.. لم يعمل أي شيء لكنه من الأثرياء، ليس في استراليا، وإنما في العراق كذلك، حيث اشترى عشرات المنازل والمحلات بعد سقوط صدام حسين، مباشرة.

«شطارة»، هكذا يقول وهو ينفخ بسيجارته إلى السماء ويعصر كتف فتاة بعمر البطة.

حينما انصرفت من دون أن أردَّ على شتيمته الطويلة المعتادة، قال للمتحلّقين حوله بأنه بات له راتب مخصّص من قبل الحكومة العراقية الجديدة باعتباره أحد «المجاهدين» في الأهوار ومن رجال المعارضة المتضررين.

شعرتُ أن عمود الإشارة الضوئية يعاند، ولا يريد مني العبور، تبدّل احساسي وشعرتُ بأنَّ عمود الاشارات هذا هو صليبي الذي يربطني لتلقي حجارة الملل والترقب.

شعرتُ أنه حتى التنفس بات متوقفاً على إشارة الضوء الخضراء التي تضيء على شكل رجل أخضر يمشي في المكان المقابل المخصّص لي على الضفة الأخرى.

لم تكن المسافة قليلة بين المسارين، فقد كان الفاصل بينهما بمقدار حيرة المنفى العراقي نفسه.

عندها فقط شعرت أنَّ عمود الإشارة تلقى صفعة أعادت إليه اليقظة اللونية.

وأنا أعبر الشارع إلى محطة قطار براماتا، التفتّ إلى الجهة التي غادرت منها، والتي اقترب منها حماده بسيارته كثيراً جداً من المقدار المسموح به، فتذكرت المعركة الأخيرة وموت هادي سيد جبر، وكيف ودّعنا حماده سياه هناك في ذلك الهور البعيد، ثم موت شنغاب وهو منتصب الظهر كما البندقية الماسية الاستيلية التي تأبى الصدأ.

تذكرت حماده وكيف كان منشغلاً بملابسه يتحسس رثاثتها

حيث كانت تنزل كلمات عمار عبد العزيز الحكيم جارحة مثل طعنات مقص مكسور قديم صدء يخترق الكلى والضلوع.
تذكرت كيف قَبِلَ حماده سياه بشكل طبيعي أن يضاجع تلك العجوز الشمطاء.

تذكرت ليلة مضاجعته لها مرات عديدة في تلك الليلة بالذات، وقبولها أن تدلّه على تجار المخدرات.

تذكرت كيف أخذ يشعل حماده سياه سيجارته بأوراق كتب الحوزة ومؤلفات محمد باقر الصدر بالذات.

تذكرت كيف غيَّر قميصه وأعدل بنطلونه وخرج بفردة حذاء يمسكها بيده، وهو يلتفّ مغادراً ذلك الوكر المجاور لأكبر مقبرة شهداء في مدينة قم الإيرانية، وهو يقول بأنه سيبدل حذاءه القديم بآخر جديد اسرائيلي الصنع.

تذكرت دهاديش مقاتلي الأهوار المشدودة أطرافها إلى الخصر بحزام عريض.

تذكرت بقية القصب الواقف وسط مجاعة الأرض كأصابع تشير صوب التمرد.

تذكرت السواتر الترابية العملاقة التي كان يصنعها الجيش الحكومي لصدام حسين تساعده الشاحنات المدنية. التي جاء أصحابها لطلب الرزق، تماماً مثلما تم بناء جدار الفصل العنصري الاسرائيلي باسمنت مصري ويد عمالة فلسطينية.

تذكرت أم هادي سيد جبر متكورة بعباءتها القديمة وكأنها

امرأة عراقية تجبر قطار سدني أن يسجد لينابيع الحنان في عباءتها العراقية.

تذكرت كيف نهضت أم هادي بصعوبة فبدت مثل تلك المرأة التي كان ينتظرها قطار براماتا.

كانت أم هادي سيد جبر تنظر إلى شيء بعيد غير مرئي، وكأنها أخذت تمشّط الأفق بنظرة من الحزن.

ذلك الحزن الذي هو مدرسة فلسفية لا يفقهها سوى المعدان وأبناء الجنوب ومن يخالط معه وضميره طينتهم ومأساتهم.

تذكرت حوزة دار الحكمة.

تذكرت شارع انقلاب وسوق جهار مردان وحدود همت.

تذكرت أكياس التتن وكيف يلفّها شنغاب العجوز.

تذكرت شفافية مياه الأهوار وصمت الكائنات في تلك الليلة الأخيرة، وكيف بدا القمر بلا صورة منعكسة في الماء.

تذكرت القحبة «صفية».

تذكرت صديقتها تلك الداعرة الشمطاء العجوز.

تذكرت تلك المرأة العراقية المرتدية عباءتها في محطة قطار براماتا وكأنها الوطن يلبس عباءة الحرمان، وهي تقف صامتة بإباء الكرامة في محطات التسوّل والشتات.

تذكرت مصطبات محطة قطار براماتا الشبيهة بالبنادق المصفوفة.

تذكرت كل ذلك وقلت لنفسي:

كيف لم أفطن أننا كنا مختلفين في الاتجاه دائماً، فكأن التنافر من طبيعة التجاور، لذا التقينا هنا في استراليا، مرة أخرى؟!.

كان صوت منبّه السيارة قد نزل عليّ كالصاعقة من السماء.. كادت السيارة أن تدهسني وأنا أعرج متذكراً جرحاً قديماً في ساقي.

لقد عبرت الشارع والإشارة بعد حمراء، اذ لم تتغير الإشارة أصلاً!

.....

12

في نهاية الشهر الحادي عشر من سنة 2005، كنتُ أرقب حفل تسليم قصور صدام حسين في تكريت، من قبل القوات الأميركية إلى الحكومة العراقية. بينما في هولندا يجري صخب احتفال صف قطع الدمينو (= الدومنه)، كانت ملايين القطع المصفوفة بدقة باهرة تشبه دقة العمارة في قصور صدام حسين تلك.

بضربة واحدة سقطت تلك القطع، كانت سرعتها توازي سرعة سقوط حكومة الظلام لصدام حسين.

يقولون إنَّ الهدم أسهل وأسرع من البناء، قد يكون هذا صحيحاً لكننا بعد إسقاط الصنم العفلقي ما كان البناء صعباً بمقدار الهدم، إذ كان الإرهاب العروبي والتخريب الأميركي وتحايل بعض العراقيين في الداخل والخارج، أموراً تعيق الهدم الكامل لدولة الكابوس تلك.

تحدّثت في ذات الأمر مع حماده حيث كانت المعادلة لديه

الهدم.

هدم عالمه الداخلي الموحل بطين المعدان وقتال الأهوار والاختلاط مع أهالي البصرة الفطر، السذَّج القلوب كما الأسماء:

«روحي تلوّثت بهذه السذاجة الجنوبية».

كما كان يردّد بشكل مستمر:

ـ «ما كان لازم على واحد من أهل الولاية بالنجف يوسّخ روحه ويه الشروكَيه المعدان.. هل الثولان الزبالة».

وكنتُ أغيظه:

ـ بعض أهالي النجف وكربلاء الذين يتاجرون بالدين مفاهيم ومالاً ويستغلون عاطفة الناس الدينية، وفي الأزقة يمارسون السفاح والشذوذ، هم يهود هذه الأمة.

فكان حماده سياه يصاب بمسّ صاعق كهربائي يفقده العقل تماماً.

كنتُ مصراً على مقولة الهدم، بينما حماده كان يقول الأمر مجرد استحمام من أوساخ قديمة ليس أكثر.

لعل صفية كانت أسرع في الدخول إلى هذا الحمام العقلي، إذ سرعان ما أسمت نفسها عند أول وصولها إلى أرض استراليا، من صفية إلى «صوفيا»، بعدها سيتحوّل حماده سياه إلى «مايكل».

اشتغل الاثنان بمطعم تابع لشخص نجفي إيراني الأصل والابتزاز. لم يصدّق صاحب المطعم العجوز أنه أخيراً قد وجد امرأة تعمل عنده.

كانت صوفيا (صفية سابقاً) تجلب له زبائن نهاراً وتتركه يضاجعها ليلاً.

لم يكن الأمر سيئاً بالنسبة لحماده (عفواً اقصد مايكل) فصفية قحبة قديمة ولا يمكن للقحبة أن تتوب إلّا بأن تتحول إلى قوّادة، كما يقول المثل العراقي. وصفية الآن تستطيع ممارسة الأمرين معاً، أو «الجمع أكمل» حسب العبارة التي بقيت مثبتة بمسمار الذاكرة منذ أيام الدراسة في الحوزة الدينية وهو تعبير لفقيه شيعي يسمى: أبو القاسم الخوئي، كان العراقيون معتمدين عليه حتى انطلاق انتفاضة شعبان، حيث بعدها سقط كل شيء ومات.

هناك مجموعات من العرب والشرقيين والعراقيين، يصعب عليهم الحصول على فتاة للمضاجعة، بسبب غبائهم في تعلّم اللغة الانكليزية أو بسبب مظهرهم، أو بسبب حركاتهم المضحكة أو المقرفة أو السخيفة بالفطرة، أو بسبب الاحساس بالدهشة، وأنَّ امرأة بعد كل ذلك الحرمان الطويل ككوكب، أكبر بكثير من أن تستقطبها طاقة خافتة مثل وجوههم.. هكذا أصبحت صفية عبارة عن دجاجة تبيض ذهباً.

حماده حسب للأمر حسابه قبل أن يقع، فما دامت صفية تستدرج مؤخرتها كل هذه الأموال يومياً، فمن الطبيعي أن تشعر شيئاً فشيئاً بالاستقلال وعدم الحاجة إليه.

هي لم تغادر إيران ولم تستطع مخيلتها مجرد تصور وجود أناس يتكلمون بغير اللغة الفارسية (رغم كثرة العراقيين والخليجيين الذين لا يجيدون سوى اللهجات الشعبية، فحتى العربية لا يحسنونها)، ثم أنّ الرحلة صوب استراليا طويلة، وهي على كل حال امرأة، فأدركت صفية بغريزة الأنثى خطورة السفر فردياً.

حماده أخذ يكتفي بكلمات قصيرة وكأنه كان يقرأ كلمات متقاطعة في جريدة:

ـ «بكلمة واحدة للبوليس الاسترالي، أقول فيها بأنّك كذبتِ عليهم في قصة اللجوء مع بضع صور احتفظ بها لكِ مع شخصيات دينية، سوف يعيدونك إلى إيران، وإلا فالكذب وتزوير بطاقات خاصة بأنكِ تعملين مع لجنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الإيرانية؛ تلك الدوريات التي كانت تعتقل الفتيات في قم وأصفهان وطهران، نهاراً، ثم تتفخّذ البنات ليلاً».

ارتعشت صفية:

ـ «أنت كلب».

ـ «ولِمَ الشتيمة، أليس هذا هو تاريخكِ الحقيقي المشرف؟!

أليس هذا هو الدرب الذي سهَّل عليكِ أن تكوني قوّادة في قم من خلال تعرفكِ على تلك الفتيات التي مارست لجان الأمر بالمعروف الزنا والاغتصاب بهن؟!».

نظرت صفية بعيون حماده بحدة وتركيز حاد غاضب:

ـ «ماذا تريد الآن؟!».

ـ «أن ننشىء بيت دعارة رسمياً، هناك بنات إيرانيات في مدارس قريبة».

ابتسمت صفية.. ارتخت قسماتها وتراخت:

ـ «أنت صرت أستاذ حقيقي... من يصدّق بأنك كنت ذلك الطالب السخيف في الحوزة».

هكذا مشت العجلة، رغم أن صفية لم تكن تكترث بتحذير القانون الاسترالي من عدم استخدام فتيات صغيرات واغوائهن.

كان حماده سياه يحذّرها (رغم تلذذه بالأمر) بأنَّ الوضع في استراليا مختلف عنه في إيران. هنا يرحبون ببيت الدعارة الرسمي باعتباره نوعاً من العمل، لكن وفق سن محدد بأن لا تكون الفتاة العاملة أقل من الثامنة عشرة لا أقل وبعدة شروط.

كانت صفية تجيبه بأنّ الدعارة دعارة:

ـ «مقحّبة وبيّها قانون كيف تنعقل هذه؟!».

بعد أن تعرّف حماده إلى لبنانيين وسوريين وسودانيين من طبقة «الكبار»، بات حماده يحرص على صفية بأن تجلب لهم فتيات صغيرات.

غدت صفية هي التي تحذّره من خطورة هذا التوسع السريع، فكان يجيبها:

«اقامتنا في استراليا مؤقتة حسب القانون الجديد الذي سنَّه رئيس الوزراء جون هاورد، وعلينا الحصول على أكبر كمية من المال.

هل تريدين الرجوع إلى إيران وأنتِ حافية؟!».

صفية بدورها ما أن تسمع باسم الفيزا المؤقتة حتى يصيبها ذعر مهول وكأنها لأول مرة تعرف بأمر اقامتها المحدودة. يبات قلبها كأنّه قد خُطف من صدرها بواسطة مخالب مخلوق اسطوري البشاعة. وبهذا تتحول صفية إلى قطار لا يهدأ من العمل، يحرق كل شيء وقوداً للوصول إلى تلك المحطة البعيدة من الأمنيات.

العراقيون وجملة من العرب ومن الشرقيين، باتوا يلاحظون ظاهرة وجود فتيات من عوائل محترمة تخرج عن طريق الستر والحشمة، إلى التهتك أو الارتماء بالأحضان.

الملابس تتغير.. طريقة المشي.. كثرة الغياب عن المدرسة أو البيت، والظهور مع شبان في سيارات ذات

أصوات مرتفعة مرفقةً بأغان لا يفهم أحد ماذا تقول، سوى بضع مفردات من الشتائم أو الكلام البذيء جداً في اللغة الانكليزية.

كان الرأي الشائع في تحليل هذا التكاثر القافز فوق أي تسلسل للتفسخ، هو أنَّ طول المدة يجعل الأجيال الجديدة تذوب بعناصر التأثير للوسط الأجنبي.

لم يدرِ هؤلاء بوجود مرض خطير اسمه حماده وصفية. ذلك المرض الذي سيتحوّل إلى ورم سرطاني، حيث سيكون هناك بعد أربع سنوات فقط، أكثر من حماده واحد وصفية واحدة.

لم يجد الناس حلاً سحرياً سوى تزويج بناتهم بشكل مبكر جداً، ومن يتزوجهن سوى شبان محرومين يعيشون الحسرات في العراق.

بذلك باتت كل فتاة تأتي بعريسها من العراق تجرّه خلفها وكأنه تيس وهي عنزة؟!.

لقد كان على هؤلاء العرسان الجدد العمل بشتى أنواع الغشيان، من أجل تسديد فواتير الديون واللهاث لارضاء الزوجة العزيزة، كي لا تغضب وتطلقه فتتمّ إعادته من حيث أتى.

فالبعض كان يصبّر نفسه بالقول بأنه سوف يطلق هذا الصنف من النساء اللواتي لا يجدن سوى الكسل وكثرة

الطلب، ويخلص في أول يوم يتم منحه الاقامة الدائمة التي تُمنح بعد سنتين من التزويج.

بيد أنّ شيئاً من ذلك لا يحدث غالباً وذلك لكون الفتى ـ التيس، يكون قد تم تقييد رقبته بطفل أنجبته العروس العزيزة.

إنّ تقييد المرأة للرجل بانجاب الأطفال، خطة قديمة لدى نساء العراق (وبلدان الخليج العربي)، وقد تكون هي خطة متوارثة لدى جميع نساء الكرة الأرضية، تعلمنها من جدتهن حواء المشاغبة، والتي أدّت كثرة طلباتها إلى هبوط آدم إلى أرض الشقاء والمنفى الأبدي.

ففي سنة واحدة تزايد عدد سقوط الفتيات الصغيرات في هذا المستنقع، حيث كنَّ يتساقطن بثيابهن المتعدّدة الألوان، وبلهجاتهنّ المختلفة البلدان والمناطق، تماماً مثل سقوط بيادق لعبة الدمينو تلك.

وفي نفس الوقت كانت قصور حماده سياه وصفية ترتفع في العراق وإيران، وعدد البيوت التي يشترونها في استراليا تتكاثر وكأنها دجاج وليست بنايات من الطابوق والآجر.

الأخطر أنَّ حماده وصفية اكتشفا أنَّ السياسة والدين باتا أمراً ضرورياً في الوضع العراقي الجديد بعد سقوط الصنم العفلقي، لذا يجب عدم إهمالها في الشكل. وبالتالي، ممارسة نوع من التوبة «النافعة».

فبعد سقوط حكومة صدام حسين باتت صفية عراقية مئة

بالمئة، حتى أنها حصلت على جواز رسمي من السفارة العراقية في ولاية «كامبيرا»، بينما لم أستطع أنا ابن آخر رجالات ثورة العشرين، وابن أحد أقدم وأكبر عائلة مضطهدة، الحصول على ذلك.

حماده هو الآخر أصبح يكثر من الاتصال بالمثقفين، شعراء، نقاد، مسرحيين، ممثلين، ملالي ومعمّمين..

أي كان المهم هو أن يجعل اسمه حاضراً.

حينما حضر عمار عبد العزيز الحكيم عام 2005 في سدني استراليا، شاهدتُ حماده سياه يحتضن عمّاراً ويلتقط صورة تذكارية معه.

لقد نسي حماده مشكلة الملابس البراقة والعمامة الأنيقة وكون عمّاراً لا يجيد سوى ذلك الهذر المكرّر المعاد.

نسى حماده تلك الأحاديث في حوزة دار الحكمة، بعد وشوشة وكلام طويل في زاوية خارج القاعة التي اجتمع الناس فيها لاستقبال عمار الحكيم.

قال عمار الحكيم لحماده:

ـ «خذ هذا رقم هاتفي الخاص وبريدي الالكتروني.. سنحتاجك في إذاعتنا، إذاعة الفرات وموقعنا الثقافي: مؤسسة شهيد المحراب [وذلك أنَّ محمد باقر الحكيم تمّت تصفيته جسدياً في بدايات سقوط حكومة حزب البعث]».

ابتسم حماده وقبَّل يد عمار، وهو الذي كان يبصق على أكبر عمامة في مدينة قم.

بعد شهور عرفت أنَّ أقرباء حماده أخذوا يعملون في لجان الانتخابات وبعضهم تنصّب مناصب رفيعة في الدولة الجديدة.

في محطة قطار براماتا انحنيت.. تحسست جرحاً قديماً في ساقي.. قلبت بطاقة الاقامة المؤقتة المنتهية المدة:

ماذا أفعل، فالعراق لا يزال حتى الآن أضيق من مساحة محطة قطار براماتا.

ولا يزال هذا العراق يتجرأ عليه الجميع ويعبث فيه الجميع وكأنه لعبة الدمينو تلك؟!!.

13

عبرتُ إلى الضفة الأخرى من الشارع، بدت لي محطة قطار براماتا أشبه بكنيسة تبدد ترنيمات الفضيلة.

كانت الشمس فوقي سوداء داكنة، فكأنها غُطِّيت بإسفلت، وقير الشارع الأسود المذاب تحت دقات القلب الصاخب بالقهر والضجر والكفر بحكمة الحياة وصيرورة الخلق.

«شمس الأكراد سوداء».

هكذا كان يردد حماده سياه وهو يهرش ساقه من عضات بعوض الهور، ثم أكمل:

ـ «هكذا كان أخي يقول».

ـ أخوك؟!!

ـ «أخي كان يحب كركوك لكن الأكراد كانوا يضايقونه لكونه عربياً. بعد مشادة في يوم من الأيام حول كركوك عراقية للجميع أم كردية أو تركمانية فقط، قتلته مجموعة من الأكراد الأوغاد».

ـ وما علاقة هذا بكون «شمس الأكراد سوداء»؟!

ـ «لا أعرف.. كان أخي يردد ذلك منذ أيام بعيدة جداً من مقتله، من المحتمل لكونه كان يقيس شمس الشمال الصفراء بشمس الجنوب المتفجرة اللهب».

قال ذلك ثم صرخ من لسعة بعوض كبيرة، حينما ضربها باتت يده كأنها تتصبب دماً من جرح طلقة أو رصاصة مباغتة، وذلك لفرط حجم ذلك البق والبعوض وكثرة حشرات الحرمس التي توازي ذرات الهواء كثرة.

كان هادي سيد جبر، يضحك وهو يتفرج على حماده سياه، يهوش ويلوّح بيديه يميناً ويساراً ويلطم نفسه مرة على الوجه ومرة على اليد ومرة على الكتف، ومرة يرفع دهداشته وثوبه ويحك بطنه أو خاصرته.

هادي سيد جبر، الجامد بين القصب كان يرمقه بضحكته الصاخبة العالية:

ـ «لا يزال البق والبعوض يعتقد بأنك غريب عنَّا ومشكوك فيك في هذا المكان».

ـ حماده سياه كان يجيب بنزق وحدّة:

ـ «شنو.. البق والبعوض أقاربك، ما شوفك تحك أبداً... لو تدفعله رشوة؟!».

هادي سيد جبر، كان يجيب بلا تريث وبهدوء من يريد الاغاضة والمزاح في ذلك الجو الغائض:

ـ طبعاً أنا والبق معدان، أنت ابن المدينة تهتم بنظافة ثيابك فقط، نحن يابزر النستله في ساحة قتال وليس في شارع بشَّار وأبو نواس، وصحن النجف، أتراقب طيز ومؤخرات البنات.

أنت لا تحتمل عضة بعوضة فكيف لو أصابتك طلقة أو شظية؟!».

عند هذا الحد من الحديث، كان حماده يبتسم ثم يضحك قافزاً إلى هادي سيد جبر، يربت على كتفه، ويقول له إنَّ الضجر والانتظار هما اللذان يجعلانه يتعارك مع البق والبعوض، أما في الحقيقية فهو لا يشعر بهذه العضات والقرصات الصغيرة أبداً، وهكذا يتغير مجرى الحديث.

في المحطة الخالية، ستحاول مرات عديدة أن تغير مجرى الحديث النفسي الذي يجري داخلك هادراً صاخباً، وسوف تمانع وتتصلب في التجديف ضد التيار لكن بدون جدوى.

مهما حاولت الخروج من ذلك النهر سوف تنزلق وتقع فيه مرة أخرى. لأول مرة أعرف أنني أحفظ مقطعاً قديماً كتبه الشاعر البعثي سامي مهدي في مجموعته «أسفار الملك العاشق». نص أسماه سامي مهدي بـ «الغائب».

تذكرت النص، وتذكرت ذلك السؤال القديم: كيف يمكن

أن يكون الشخص شاعراً يحاول إدراك انسانية الانسان، بينما هو بعثي يمدح دكتاتوراً بمستوى صدام حسين؟!

سامي مهدي الذي كتب قصيدة «رأيت ما رأيت» عن قرية سيحان، وهي قرية لا تنسى بالنسبة لي لكونها مسقط أحد أعزّ أصدقائي ورفيق مسافاتي الموحشة.

تذكرت كيف فرّ سامي مهدي بعد سقوط الصنم البعثي، فأخذ يكتب شعراً عن طائر أضاع عشه.

لماذا هذه الذكريات، من أين للروح كل هذه الطاقة لمحادثة نفسها؟!

أخذ هواء المحطة يشكل لي تلك القصيدة القديمة:

«بحثت عنك في جريدة الصباح، في طاولتي، في قدح الشاي، وقلبت الوجوه في الطريق، لم أجدك، أين أنتَ، قيل لي حللت فينا، كيف، هذا جسدي: الوجه وجهي، وأنا لم أتغير: خشب يمشي ونار لم تزل غافية (..) وددت لو أراك، لو أمدّ إصبعاً إليك، لو أديرها مع استدارة الوجه، وفي الشوارع الفساح ألقي جمرة، وأجمع الناس، أقول: صاحبي هذا

فهل تقول: لا».

لأول مرة أشعر فيها بأني يتيم، رغم أنَّ أبي قد توفي باكراً من عمري وكبرت فيَّ بذرة العناد وتشابكت أغصان شجرة التحدي.

أخذت أحدّق بالثلاجة الأوتوماتيكية الحافظة لمشروبات الفواكه وأكياس صغيرة للبطاطا وغيرها.

تضع قطع المال فتخرج العلبة، كانت الثلاجة منتصبة أشبه بحارس قصر ملكي مطرود.

شعرت أنَّ الثلاجة يد باردة، نعم حينما تكون وحيداً مخذولاً، ستكون جميع الأشياء ذات حياة ومشاعر وعقل.

التصوف ووحدة الوجود ورؤية كون كل شيء يسبّح بحمد ربه، ارتكازة نفسية للشخص الوحيد في غار حراء أو في تكية دراويش أو احساس يكتنف الجندي الوحيد المتبقي في الخنادق الأمامية للمعركة والاحتضار والتيه والكتابة.

حينما مددت يدي إلى مصافحة الثلاجة، شعرتُ أنني أصافح قطيعاً كاملاً من الذئاب:

هل جرّبتَ مرة أن تبادل الذئب الابتسامة؟!

هو أمر لا يفقهه سوى ذلك البدوي القابع في صحراء الزبير، قابضاً على حزمة الليل بعيونه.. بأوتار لوعته وعشقه وصفنة الزمن الأغبر في قعر الفؤاد.

ـ «هل تعرف أنَّ البدوي يقرأ بعيونه.. البدوي ثقته بالعيون فقط».

يأخذ هادي سيد جبر، نفساً عميقاً:

ـ «البدوي توأم المعيدي، غريب أن يكونا متطابقين رغم أنَّ الأول يستجدي الماء بينما الثاني يغرق فيه؟!... هل عشق الماء هو السبب؟!».

ـ لا أعرف.. هناك فيزياء خاصة للجسد وهناك كيمياء سرية للروح.

الماء والشمس هما رمز عراقي قديم، ولا يوجد شعب لا يعشق الماء والشمس.

العلماء يقولون إنَّ الحرب القادمة ستكون معارك عالمية من أجل الماء.

ـ «لكننا سبقنا العالم فتعاركنا من أجل الماء».

ـ الماء لدينا في العراق وفير، لكن العلماء يقولون إنَّ الماء في عموم مناطق العالم يتضاءل.

ـ «الماء والتراب، الانسان يفرط بهما بشكل غريب. يبدو أنَّ التقدم الصناعي لدى أصحاب المدن، مصحوب بإنتاج أنواع جديدة من أمراض التشوه الانساني في العقل والروح والضمير».

يمسك هادي سيد جبر، بقطعة قصب صغيرة ويحرّك بها الشاي الحار، في قنينة معجون طماطم.

كانت تلك القناني والمعلبات الفارغة، وذلك الشاي الخابط، هو النخب الذي لا نكفّ عن تعاطيه.

الشاي صديق البارود، أما الخمر فصديق الشعر.

الفلسفة تعقب صداعاً وحسرة، والشعر يعقب سكرة وارتياحاً.. المصيبة أننا كتبنا عن الحرب شعراً كثيراً في حين أنها نوع من أنواع الفلسفة!

أخذ هادي سيد جبر، يجرع الشاي مرة، وينفخ على القنينة البائسة مرة أخرى علها تبرد قليلاً، ثم قال لي:

ـ «أمن أجل هذا تكره أنْ يكون الشعر قولاً فارغاً من الفلسفة؟!».

ـ قل لي أنت ماذا ستفعل بهذه القنينة البائسة لو لم يكن هناك شاي تشربه فيها؟!.

ـ «قد استخدمها للتطهير في المرحاض».

مخيال الشعر وحده من يقترف جريمة تحقيق «شمس الأكراد سوداء»، هذا النوع من الشعر ستجده يقف جندياً محمّلاً بالنياشين يطلق عليك مدافع السلطة القاتلة للماء والضمير.

بدا هادي سيد جبر مندهشاً مثل طفل لا يريد فضح ريقه المبلل بطعم الحلوى:

ـ «لكن نحن المعدان نحب الشعر ونتضايق من الفلسفة؟!».

ضحكت عالياً:

ـ ما يقوله المعدان من شعر شعبي هو فلسفة خاصة، فالفلسفة امتداد للميثولوجيا العراقية... ثم هذا التعلق قد يكون هو أحد أسباب تناقض الأهوار مع الحرب وكونها لا تدخل إلى مرحلة المدينة.

في سدني استراليا، حينما أردت الوصول إلى محطة قطار براماتا، كان حماده سياه يعطف الشارع بسيارته، كاد يدهس رجلاً عجوزاً.. كاد أن يدهسه عن عمد وهو يقترب منه بحدّة.

أصيب الرجل العجوز بذعر وأخذ يلوّح بيديه وشلال الشتائم العراقية تفيض من كوة فمه الناري الغاضب:

ـ «ستذهب إلى العراق يابن القحبة يوماً وسأجعل الأكراد يقطعونك إرباً ويلقون بجثتك بقرب أخيك الذي كان يقاتل الأكراد مع جيش صدام».

شعرت بكلمات العجوز رصاصات طنَّت في أذني، فخرج مني الكلام ساهماً مع الذكرى القديمة:

الآن عرفت لماذا كانت «شمس الأكراد سوداء»، نعم هي سوداء لكثرة ما أحرق خونة العراق قرى الأكراد وأطفالهم.

آآاه: وراء كل محرقة شاعر مسعور، لقد صدق ديوان «قربان على مذبح آخر الآلهة»:

«كلما أطلق الحاكم
كلابه
صعّد الشاعر
نباح القصيدة،
قصائد الشّعر
لدينا كثيرة

لذا لا تستغرب
البصرة
أن تهطل السماء
علينا دوماً
بالرصاص».

كانت الشمس حارة في ذلك اليوم الاسترالي عندما أخذت بيد الرجل العجوز، الذي قال لي إنه تفاجأ بوجود هذا الكلب البعثي الذي دلّ الحرس الجمهوري لحكومة صدام حسين، وأدخلهم إلى المنازل بحثاً عن ثوار انتفاضة شعبان عام 1991.

أخذ العجوز يرتعش بين يدي وهو يتحدث بغضب:

ـ «البعثيون افروخ صدام الخنث، لحقوني لاستراليا.. إلى هنا.. الله أكبر.. وين أروح ربي».

ثم التفت العجوز إلي مندهشاً:

ـ «ها.. إشبيك بويه؟!!».

لم أشعر أني كنت أبكي.

اختلطت ملوحة الدموع وملوحة ذلك الشاي المرّ، حيث لا سُكّر ولا محطات في ذلك الهور البعيد.. هناك حيث يجلس هادي سيد جبر، يضاحك الماء وفوهات البنادق.

فبدلاً من أن أعين أنا العجوز وأقتاده، وجدته هو الذي يسندني ويقودني.

أخذت أفتش عن وجه هادي سيد جبر، في اسفلت الشارع، في كشك الصحف، في لافتات الجدران، في عربات حمل الأطفال.

وجدتُ نفسي أردّد، وصورة هادي سيد جبر معلقة بمسمار الوجع في حائط الذهن:

«أبحث عنك في جريدة الصباح
في طاولتي
في قدح الشاي
وقلبت الوجوه في الطريق
لم أجدك
أين أنت
قيل لي حللت فينا كيف
هذا جسدي:
الوجه وجهي
وأنا لم أتغير:
خشب يمشي ونار لم تزل غافية فيه
(..)
وددتُ لو أراك
لو أمد إصبعاً إليك
لو أديرها مع استدارة الوجه
وفي الشوارع الفساح ألقي جمرة

وأجمع الناس
أقول: صاحبي هذا
فهل تقول: لا».
كنت أرددها وثلاجة المحطة وحدها من كان ينصت إليَّ ويجهش وتجهش بالبكاء.

. . . . . .

14

المحنة تجعلك تقشّر الزمن مثل الجوزة.

كنتُ أجلس في منصة محطة قطار براماتا، منحني الرأس محدّقاً ببطاقة الفيزا والاقامة المؤقتة المنتهية التاريخ.

كنت متكوِّر أضلاع الصدر والتمني، كمن يحاول تلقي صاعقة سماوية.

كانت أضلاعي تنغرس في باطن الوهم، مثل مجموعة محاريث زراعية قديمة لحقل غير مؤكد الثمر والعطاء.. كنت متكوّر الأضلاع مثل قارب يتيم تعارك معه النهر ونبذه.

هل فكرتَ يوماً أنك بهذا الجسد وهذه الأفكار، وسط أمواج الحياة، بأنك لست سوى قارب.. مجرد مجموعة أخشاب تأنّ بصمت.. ياه.. كم مسكينة هي القوارب!

في الأمس كان قارب الجسد يحمل الروح الجريحة والأماني المستحيلة من قاعة الصف وباحة المراهقة الوشيكة،

حيث لم تكن الروح تفقه سوى كيفية الموازنة بين ساعات الدراسة وساعات الذهاب للسوق، الحصار.. آآاه الحصار.

الحصار الاقتصادي الدولي على العراق، جعل الجميع مرهقاً لا يدري كيف يجلب للبيت ذلك المخلوق المعجزة المسمى بـ «الخبز».

لم يبقَ شيء يباع حتى سراويل الأطفال وعباءات النساء. كان الحصار أقسى من الحرب العراقية الإيرانية، الحصار كان يدك البيوت ناثراً عظام الصبر في وجه الفضيلة والريح.

وحدها بغداد قلعة الأمن الحكومي، كان يجب أن لا يعاني أهلها أيّ نقص في الغذاء.

لا.. حتى بغداد لم تسلم أطرافها.. المركز وحده كان هو المصون مع المجموعة الذهبية: تكريت وأخوتها، الذين لم يدروا أنَّ في العراق جوعاً أصلاً.

ليست هناك سياسة ودولة، وإنما هيمنة عشائرية وقبلية على بقية عشائر وقبائل المجتمع الأخرى.

بعد انتفاضة شعبان عام 1991، تحولت المنازل إلى بيوت أشباح.. صمت في الشوارع.. صمت في المنازل.. صمت في الأسواق.

حتى صوت المؤذن وأجراس الكنائس، كانت ترن وتعلو بصمت.

في الفقد، الصمت وحده هو لغة الحضور.

لم يتبقَّ من مقاومة لنا سوى الماء، الهور كان قلعة الروح الأخيرة.

لقد حاصرت حكومة صدام حسين الماء، أحرقت القصب، أوقفت الأجساد مثل قوارب منتصبة.

كانت البنادق مصطفة في الأيدي وكأنها حشد من المصلين في المسجد.

لكن غراب الشر منقاره أقوى وسربه أكثر، انهزم جيش الفراشات وتبدد مع الضوء.

هكذا فرَّت قوارب الجسد بأطفال الروح وأمنياتها إلى إيران وسوريا ثم الشتات العظيم.

كان موقفاً مراً. لقد أبت القلوب إلا أن تمكث في تلك الأرض التي تحولت إلى أرض خالية جرباء.

حاولنا سحل قلوبنا معنا لكنها أحرنت مثلما تحرن الحمير وتعاند.

العقل يحسب الأمر غباءً، لكن فقه القلب لا يدري ماذا عساها تكون حسابات المصالح.

العاطفة براءة خالصة، هي تريد ولا يهمها الهزيمة وإلا لم تكن عاطفة.

.. هكذا خلفنا وراءنا جثة هادي سيد جبر، ومحمد هني الياسري، وشنغاب.. هناك بدت الأهوار بعد ترحيل المعنى

وترحيل الماء وترحيل المقاتلين والمعدان، أشبه شيء بمحطة قطار قديمة ومهجورة.

تلك المحطة القديمة المهجورة كنا نشعر بأرواحنا تعوم وسط أجسادنا وأحشائنا رغم اختلاف الدول التي هربنا اليها.. رغم عدم امتلاكنا لأية وسيلة اتصال فيما بيننا حتى ولو كانت بدائية، لكن الهور.. تلك المحطة القديمة أبت أن تكون منسية حيث كانت هي تطفو وسط بحر الصين الذي مررنا به في رحلة الانتحار صوب استراليا؛ كان الهور يطفو وسط ذلك البحر مثل جزيرة مسحورة تظهر فجأة كلما شعرنا أنها فقدت وضاعت إلى الأبد.

كنتُ أرى الهور يطفو وسط بحر الصين ونحن نعبر بتلك القوارب الصغيرة للمهربين الآسيويين.. أول شيء شاهدته في البحر الأندونيسي هو الهور.

كنت في زورق التهريب أشاهد كل جزيرة من جزر أندونيسيا الرابية على الماء، بأنها هي تلك المحطة المهجورة.. فتنفتح عيوني ويشهق طفل الروح في القلب، ويعربد القلب ويحاول الخروج من الصدر مثل طفل زعلان غاضب يحاول التخلص من يدي أمه.

كنت أصيح ودموعي أشد ملوحة من مياه البحر وأيدي المهربين تمسك بي بقوة فلا يدرون أيّ روح للجنون نزلت بي.. كنت أصيح بوجه الجزر الأندونيسية:

«أيها الهور.. أيها الهور اغفر لي.. اغفر لي أيها الهور.. لم أرحل عنك بإرادتي.. صدقني أيها الهور... صدقني.. لقد تهت عنك.. اااااخ:

كم معطوبة هي بوصلة القلب هذه».

كنتُ أصيح ونصفي خارج الزورق، ألوّح صوب الجزر الأندونيسية التي كانت تشبه عباءة عراقية مفروشة لبائعة متجولة عجوز تشبه أمي على الرصيف.

حينما ظهرت جزيرة «أشمر» في المحيط الهندي، وهي أول جزيرة استرالية، ركبتني حمى الهور مرة أخرى.

كان الجميع يصيح فرحاً:

ـ «ها قد وصلنا إلى استراليا».

وحدي كنت أصيح ها قد عدتُ إليك أيها الهور الحبيب... «بردان يحبيب كتلني البرد بعدك».

في معسكر «ومرا» للاجئين، القريب من قاعدة صواريخ فرنسية بريطانية أميركية، مشتركة موجهة ضد بلدان آسيا، في تلك المنطقة البرية المقفرة، كنتُ أنتظر النوارس وهي تجلب لي رسائل تلك المحطة القديمة.. ذلك الهور البعيد.

وحتى حينما صعدتُ الى الطائرة صوب مدينة سدني، كنت أشاهد الطائرات بأنها عبارة عن أهوار محلقة.. كل طائرة هي قطعة من الهور العراقي مربوطة بشرايين القلب والذاكرة.

وفي سدني، ونحن نخرج مع عشيقاتنا الاستراليات منددين

بإعلان أميركا الحرب على العراق، كانت صورة الهور الذي تحاصره الدبابات الأميركية، وصفعة الأرض للصنم البعثي الساقط، ثابتة بمسمار الذاكرة في قلبي.

أول شيء تخيّلته هو أنني رجعت إليه، أي الى الهور، تخيّلت أنني أعود وألعب مع الجاموس والبط وطيور الماء، وألعب بذلك الطين.

حينما سقطت حكومة صدام حسين وصلت إلى أنفي رائحة خبز حار يتصاعد طازجاً على نار القصب والحنين.

منذ سقوط صدام حسين وأنا أشعر بجوع غريب ومعدتي لا تستقبل الطعام إلا بصورة عسيرة، مرات عديدة أتقيأ، لكن تبقى فيّ شهوة التهام وجبة حارة من ذلك الخبز السميك الذي تبقى فيه خميرة عجين شبه نيئة.

بعد سقوط صدام حسين، لم أكن أهتم سوى بأخبار عمليات الارهاب وتصعيد أخبار الماء.

كنت أراقب بكاميرا القلب كيف أنَّ هناك قوارب عادت تعوم على الماء من جديد، وأنَّ صورة للقمر أخذت تنعكس على جبين الهور شيئاً فشيأ.

ولقد آلمتني أخبار كثيرة حول إهمال الماء واللهاث وراء المناصب وسرقة الأموال العامة، في حين أنَّ وزير الموارد المائية الدكتور «عبد اللطيف جمال»، كان يؤكد بأن العراق يفقد سنوياً (100) دونم لصالح إيران، حيث أنَّ الضفة اليمنى

من شط العرب لا تزال تتآكل في تلك المنطقة المسماة بـ «سيحان»، حيث مسقط رأس صديقي رفيق المسافات الموحشة الذي بات الآن مذيعاً في قناة الحرّة الأميركية، وحيث أنشد سامي مهدي أنشودة «أحنه مشينة للحرب».

كان القلب مثل تقطيبة المحارب، يتلهف أن يرمم كل شيء بسرعة، كي يعود القلب إلى الطفل، إلى «كاروك» القصب ذاك.

لكن كيف، وحتى محطة قطار براماتا قد تغيرت وكبرت وكبرت الأسواق حولها.. ذهبت وجوه وتبدلت مبان وبقي الحزن وحده يستجدي مرور الأمنيات.

كنتُ كلما لمحت حماده سياه أو صفية القحبة في سدني تضربني رائحة خبز محروق منسي، وأجد نفسي أغطّ في كومة من رماد الوقت:

هل يعقل أننا كنا في ماء واحد وهور واحد وزوارق متصافّة متقاربة؟!

كان حماده وأحياناً صفية، التي انتفخت مثل برميل وباتت عصبية ومنكسرة بعد أن أصابها مرض الايدز، وبعض الأمراض الجلدية التي زادت في تشوّهها، وأحياناً كلاهما معاً: يأتيان إلى محطة قطار براماتا، بعدما عرفا ساعات حضوري فيها.

يضحكان عليّ بشكل تمثيلي بأنني لا أزال ذلك المعيدي

البصراوي الغبي الذي لم يستطع توفير مال صغير لامتلاك سيارة.

كنت أجيبهما بأنني أستحضر قطار الجنوب في المحطات؛ فالسيارة تجعلني جزءاً من بلاهة الناس، في حين أنَّ المحطة محراب للتوحد، لقد كانا، كعادتهما، يضحكان بتلك الطريقة الفجّة، الأمر الذي يجعلهما، بذلك الفم المفتوح، مثل غرابَيْن يؤديان دور الحماقة والخبث.

ومثل مرات بالية أخرى، كنت أتركهما في عش التفاهة وأتصفّح في ذهني قصيدة في ديوان آخر الأسلحة معنونة «إلى باقر الصدر أخيراً»؛ كانت القصيدة وهي في ذهني تبلّلني بحبر الضمير ودم المعنى، خصوصاً في ليلة ممطرة كهذة حيث أنَّ محبرة السماء اندلعت فوق محطة قطار براماتا، فإذا بلؤلؤات المطر تترنم بالقصيدة:

إلى متى ستظل تلعب
بالبيضة والجمره. . . . ؟!
إلى متى ستوقفك
نوافذ الصباح. . . .
وأنت طفل أعجبتك
حكاية رجل باع

نفسه للنهر ذات مرة
مقابل قرص الخبز
الدافئ ذاك
لقد أعجبتك تلك الحكاية
لكنك
لم تعرف أبداً
أنَّ أطفال الحيّ
ما زالوا صغارا

كم مضت من أعوام وأعوام، حتى ظهر قبر باقر الصدر أخيراً بعد غياب امتد بعمر الكابوس، لكن العراق لم يتغير، ما زلنا نبحث عن مفكّر نقتله، فالوطن لا يدخل العصر الجديد إلا بحفلة قتل الفيلسوف.. آه نموذج صيغة وحماده سياه هو المنتصر.. للمستقلين العزَّل انفرادة الخسران... الكثير من الكتابة والأمنيات والقليل من رماد السعادة ورمل الفرح.

ها هو قطار براماتا يترنم بأنشودة الأمن الفقيد، بينما الغرابان صفية وحماده يواصلان تقليد الغراب بقهقهة سخيفة.

مع ذلك فمرات كنتُ ألمح صفية تداري دمعة وشيكة، بينما حماده سياه، أجده سارحاً إلى هناك، حيث أمواله التي

ضاعت بأخذ الحكومة الاسترالية لها لكونه تحايل على دفع الضريبة، بينما أخوه حامد الذي تم اغتياله في حادثة سرقة بنك شهير، بات اليوم يعد أحد الشهداء حيث تم تزوير أوراق للحكومة العراقية الجديدة كي تصرف لأهله مرتّباً شهرياً. . .

ولعل حماده كان يغرق في الصمت الآن لكون الكلام بات يسبب له متاعب مع مرض السكر الحاد.

بعد انتهاء الحديث كان حماده يقف مثل المصلوب يحدّق بالشارع المجلود بضياء السيارات، فيكون اسفلت الشارع مثل عبد آبق يتمّ جلده بسياط من نار.

كانت السيارات تقل شيئاً فشيئاً، والأضواء تختفي. . بات الشارع مثل كومة من رماد.

أخذت النار تخفت اعلاناً عن احتراق الخبز في ذلك الهور البعيد. .

من الرواية:

«لم يكن البعوض مزعجاً تلكم الليلة، ولا قارصاً كنهش الكلاب، مثل عادته الجارية، وكأن البعوض أبى إلا أن يترك كمية الدماء فينا كما هي، من أجل أن لا يتهمه الانسان بمشاركته امتصاص دم الاهوار القاني الوفاء.

حتى القوارب.. حتى القوارب لم تكن تمخر الماء، بل كانت جنازات تحنو عليها كفوف الماء المشيعة.. لم تكن تلك معركة.. كانت وعدا».

عبداللطيف الحرز: شاعر وناقد من العراق .

صدر له :

- **اغتيال القدس صراع النفط والتاريخ، طبعة مركز الحرمين.**
- **التصوف في فكر الامام الخميني والشهيد الصدر، طبعة المؤتمر الدولي طهران .**
- **آلام أخرى للحلاج، دار الواح، إسبانيا.**
- **الفقه والميدان، كاتب مشارك، طبع في مدينة قم - ايران.**
- **المستحيل في الادب العراقي، قراءة نقدية في استنباتات النص الجديد، تحت الطبع.**

نُشرت له مشاركات واصدرات في مجلات فكرية متعددة، مثل مجلة قضايا معاصرة، الوعي المعاصر، ودراسات عراقية.

له زاوية خاصة على شبكة الانترنت تعنى بشؤون النقد وكتابة القصه، تحت عنوان : غريب على الطريق .

3900

ISBN: 978-9953-71-227-1

9 789953 712277